

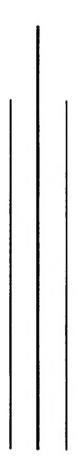
تأليف مروان الغوراني





31 ش الصالحي- محطة مصر- الإسكندرية تليفون: 002034970370 فاكس: 01005406403 محمول: 01005406403 E - mail:alamia_misr@hotmail.com





واستسلم, إبليس



جُنْوُوُالطَّغِ جَعَفُوَطَّنَ الذائر الجَالِماتِينَ لِلنَّيْدُ فِي الْبَوْزِجِ

واستسلم إبنيس

الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

رقم الإيداع ۲۰۱۳/۲٤٦١٤م

الترقيم الدولي: 1-144-744 978 I.S.B.N

الزائرالجايلين للنيني البوزي



ص ب ۱۱۰ رب: ۲۱۰۱۱۱ ش الصالحي، محطة مصر - الإسكندرية محمول ۲۱۰۱ ۲۰۰ تن ۲۰۰۳ /۲۰۰۳ تلفاكس، ۲۰۰۳ ۲۰۰۳ محمول E.mail، alamia_misr@hotmail.com

و..استسلم **إيليسل**

(مجموعة قصصية)

ئالبف مروان الغوراني





نَسِيَ السطُينُ سَاعَةُ أنَّهُ طِينٌ حَقِيدٌ فَصَالُ تَيْهُا وَعَارِبَدْ وَكَسَى الْخَازُ جِسْمَهُ فَتَبَاهَى وَحَاوَى الْآلِكَ كِيُسهُ فَـتَمَرُدُ يَا أَخِي لاَ تَهِلْ بِوَجْهِلكَ عَني مَا أَنَا فَحْمَةٌ وَلاَ أَنْاتَ فَرْقَدْ إبلا أبو ماضى

مُفتَ رَمَهُ

عزيزي القارئ!

بصراحة أنا لا أحب كتابة المقدمات، وأحب الدخول في المواضيع مباشرة، كها أنني لا أحب أن أوجه القارئ إلى ما أصبو إليه، لأعرض عليه رأيي ورؤيتي.

لذلك سأدع لك عزيزي القارئ حرية الإبحار بقاربك الخاص، لتطوف به على جميع جزري وبلداني مستطلعًا بنفسك ومكتشفًا، فترسو أين تشاء، وتبحر متى تشاء، حاملًا معك ما يطيب لك ويروق..

متمنيًا لك رحلة تجمع بين الفائدة والمتعة.

مروان الغوراني

۱- ازمست

السيارة تنهب الأرض نهبًا، في طريقها من أضنه إلى إستنبول مرورًا بمرسين، المناخ الساحلي يصب على جسدينا سيلًا من النسات البحرية الدبقة، والشمس تقذف بها عندها لتلهب نهار ذلك اليوم من شهر آب.. وتجعلنا وكأننا في أتون داخل تلك العلبة الحديدية المتحركة..

استرخيت على مقعدي داخل السيارة أعب من جمال الطبيعة، أرقب بلدًا أزوره لأول مرة.. صليل سيوف، صهيل خيل، غبار يسد الأفق، صيحات فرسان.. محمد الفاتح يفتح القسطنطينية.. جيش السلطان سليم الأول يتجه بجيشه الإنكشاري الجرار باتجاه الشام، حملات سليمان القانوني تتوالى على الصفويين في العراق.. سلسلة من السلاطين تصطف كحرس الشرف تؤدي مراسم الاستقبال على مداخل مرسين الواحد تلو الآخر، بعضهم معتد بنفسه وبعضهم خجلٌ من فسه!..



حرارة الجو ورطوبته الزائدة بخرت كل السلاطين من غيلتي، وضاع على النُّزول في قصور ضيافتهم بعد أن أوقف زميلي السيارة قرب حديقة أتاتورك المطلة على البحر قائلًا:

ـ مارأيك أن نستريح هنا قليلًا ثم ننطلق باتجاه أنتاليا؟..

جمال الحديقة وعراتها التي تنساب بين الزهور ذات الألوان الجميلة، والأشجار الباسقة المنتشرة بانتظام في الحديقة، أغرتني بالنُّزول رغم حرارة الجو ودبقه.. تحرك تمثال كهال أتاتورك ليستقبلني بوجه نحاسي لا يتناسب والزهور المحيطة به، عساكر بلباس البحرية يتجولون في عمرات الحديقة، هرب أغلب الناس إلى بيوتهم يتقون حر الظهيرة.. أشار إلى أتاتورك بأن أتخذ لي مقعدًا تحت إحدى الشجيرات الوارفة الظل، ثم رجع إلى وقفته الأولى ووجهه النحاسي ينظر باتجاه الشارع الرئيسي، وكأنه ينتظر رؤية شيء ما.. رحت أمتع ناظري بزرقة البحر الصافية، أرقب الموج الذي راح يتهادى بدلال كعروس تمشي الهويني..

أشرعة.. قلوع.. سوارٍ تعبث الرياح بها.. سفن قديمة كثيرة العدد.. فرسان يقفزون بخفة السعادين بين تلك



لسفن، سيوف تتلامع، جلبة وصخب عظيمان، صيحات فرسان راعدة، دماء تصبغ زرقة البحر.. إنها معركة ذات السواري.. نداءات تعلو مرددة:

- _الله أكبر.. الله أكبر..
 - ـ أزمة!.. أزمة!..

صحوت من شرودي على ذلك الصوت الطفولي وهو ينادي: أزمة!.. أزمة!.. طفل لا يتجاوز السابعة من عمره يحمل طبقًا صغيرًا لم أستطع تمييز ما يحتويه.. قلت لصديقي باسيًا:

_اسمع ماذا يبيع؟.. إنه ينادي أزمة!.. أزمة!.. وهل تباع الأزمات هنا؟..

_ دعنا نناديه فنرى ما هي هذه الأزمة ! . .

قنصوه الغوري يغتسل بدمه، يقع قتيلًا في مرج دابق، فاتحًا جرحه للشمس. تسقط حلب. سليم الأول ينتشي يتجه نحو دمشق. يتطلع إلى القاهرة.. يحرز نصرًا في الريدانية..

_أزمة!.. أزمة!..



أشرت إليه بيدي أن يقترب، لأرى تلك الأزمة التي يبيعها.. اقترب مني مسرعًا وهو يعرض بضاعته ويرطن بكلات تركية لم أفهم منها شيئًا، نظرت إلى طبقه لأستبين تلك الأزمة، فإذا هي نوع من الحلوى المعجونة بالفستق!..

_ هل هذه هي الأزمة؟..

أجاب بصوت طفولي بريء:

_ إفيت أفندم ! . .

فهمت أنه يقصد نعم، برمت كف يدي قائلًا: كم ثمن القطعة؟

ـ ثمن القطعة ليرتان..

قالها بلهجة عربية مشوهة.. استغربت إجابته فبادرته متسائلًا:

ـهل أنت عربي؟ هز رأسه الصغير علامة الإيجاب ـهل أنت من هنا من مرسين؟ هز رأسه باتجاه الأعلى علامة النفى

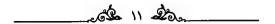
	2 2
--	------------

- ـ لماذا لاتتكلم قل لي من أين أنت إذن؟
 - ـ أنا من بيروت!..
 - _وما الذي جاء بك إلى هنا؟

عيناه العسليتان البريئتان راحتا تدوران في محجريها وهو يستجمع بعض الكلمات العربية ليرد بها على سؤالي وبعدها نطق بكلمات عربية باعدت بينها فترات صمت وتفكير:

ـ قال أبي لأن بيروت فيها حرب!..

جيش جرار، غباريسد الأفق، ألمح على رأس الجيش خالد بن الوليد أتى إلى المعركة وسيفه مثلّم لم يُشْحَذ، القعقاع بن عمرو نسي أن يحضر سيفه، وعمرو بن العاص تخلى عن دهائه. الإسرائيليون يكتسحون لبنان من جنوبها.. لم نعتد هذا في السابق، اعتدنا الاكتساح من الشهال.. قذائف تتناثر إلى شظايا، صواريخ تنطلق، قنابل تنفجر، يعلو غبار إلى عنان السهاء كقطعة فطر كبيرة، تتهدم منازل.. يموت أبرياء.. يستشهد أطفال ونساء وشيوخ، تستحم الأرض بدماء الشهداء، يستبسل رجال، تزهو الأرض مفتخرة ببطولات الشهداء، يعاربون في صيدا



وصور، يحاصرون في بيروت، والسيوف بأيديهم.. والحمم والحمم والقذائف عمياء تصطدم بكل شيء!.. بيروت تلتهب.. تحترق.. تفتح عينيها لترى صبرا وشاتيلا تتفجر ينابيع دماء.. وأرواح تزدحم أمام مصعد السهاء..

طفل وعاثلته تركوا بيروت ودمارها ونزحوا إلى مرسين طلبًا للأمان.. صلاح الدين الأيوبي يقطب حاجبيه منزعجًا يدير قرص الهاتف يتكلم:

- أجبروا القوات الإسرائيلية على الانسحاب، أعيدوا الطفل وعائلته إلى بيروت معززين مكرمين..

_ألا تريدأن تشتري؟..

ـ بلى.. بلى.. ولكن قل لي هل رأيت الحرب في بيروت؟

قال وفترات الصمت لانتقاء الكلمات ما زالت تسيطر على جمله وبراءة الطفولة تفيض من فمه..

_أناكم أر الحرب رأيت فقط انفجارات وحرائق وبيوتًا تتهدم..

صمت فترة غير قصيرة وترقرقت دموع حرَّى في عينيه ثم تابع:

ـ أمى ماتت عندما تهدم بيتنا..

أحسست وكأن صاعقة انقضت فوق رأسي وخنجرًا انغرس في فؤادي فبادرته متسائلًا:

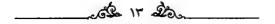
_وأين كنت أنت؟

- كنت ألعب في الحارة مع ابن الجيران.. ثم انفجر باكيًا، دموع تسيل بغزارة على وجنتين عانتا شقاءً مبكرًا.. رحت أدقق النظر بتلك القطعة الإنسانية الصغيرة التي تتفجر بالأسى واللوعة والحزن.. عيناه بدتا كفوهة بركان تقذف بحممها، تغضن وجهه فضاعت ملامح الطفولة منه، بدا كرجل كبير.. كبير يعاني مأساة كبيرة..

امرأة تصبح: وا معتصهاه.. ترتجف لحية المعتصم، يضرب الأرض بقدميه غاضبًا، يزمجر، يرغي ويزبد، يركب طائرته الحربية يهب لنجدتها وجيشه الجرار يزحف تحته بكامل مدرعاته ومشاته..

ربتُ على كتف محاولًا التخفيف عنه وعبثت بشعره المهمل الذي لم يقص منذ فترة غير قصيرة، ثم بادرته قائلًا:

_ لاتبك يا صغيرى، لاتبك!..



اختنقت كلماته في حلقه وضاعت بين دموعه وشهقاته.. ثم حاولت تغيير الموضوع قائلًا:

ـ ماذا يعمل أبوك هنا؟

مسح دموعه بكم قميصه وأخذ نفسًا عميقًا ليغذي رئتيه الصغيرتين ثم نظر إلي وكأنه يراني وسط ضباب كثيف، فكر قليلًا بالكلمات التي سينطقها ثم قال:

- إنه يعمل في مصنع الحلوى..
- ـ وأنت ألا تذهب إلى المدرسة؟
 - هز رأسه علامة الإيجاب..
 - ـ ولكني أراك تبيع الحلوى!
- ـ في العطلة فقط.. ولكن ألاتريد أن تشتري؟
 - ـ بلي.. أعطني قطعتين..

أعطاني قطعتين وابتسم لي ابتسامة صغيرة ومضى داخل الحديقة وفمه الصغير ينادي بصوت طفولي بريء:

_أزمة!.. أزمة!.. أزمة!..



۲- ا**لأفع**ــى كان

صديقي أشرف:

أكتب إليك الآن لأنك دائها تحاول أن تكتشفني من الداخل، تريد أن تطبق على ما تعلمته من علم نفس، لكنك كنت دائهًا تجدني قلعة عالية الأسوار، موصدة الأبواب..

أما وقد تهدمت أسواري الآن وضاع تحت ركامها أبوابي، فسأضع نفسي على كرسيك الطبي وأسترخي استرخاء تامًا، وأترك لك لاشعوري ينبئك عن قصتي التي أعيشها بعذاب ولذة، بحيرة وثقة.. أجل يا صديقي إنني أعيش متناقضات تفتت نياط نفسي، لن أطيل عليك وسأبدأ بسرد قصتي لك من أولها:

تعرف من رسائلي السابقة أنني أعيش في غربتي هذه مع ثلاثة من أصدقائي في شقة واحدة، وأعيد عليك ذكر أسهائهم مرة ثانية، لأن لهم علاقة بقصتي هم: نادر، وكمال، وغسان.

كنا (شلةً) كما يقولون متفاهمين متعاونين، نحن الأربعة يدواحدة في أي عمل نقوم به، فنادر هو الذي قلت لك عنه

إنه موسيقار الشلة، وكمال الذي كان دائهًا عندما يتكلم يحاول أن يتكلم من مصدر ثقة بنفسه، وهو يفتل شاربيه المعقوفين، وأما غسان فهو الذي كتبت لك عنه يومًا بأنه يبني قصورًا في الخيال، وقصورًا من علب تبغ فارغة على الأرض، ولا أدري أين تهيم أفكاره.. عشنا فترة ليست بالقصيرة سعداء إلى أبعد الحدود، كان كل واحد منا يشعر الآخر بأنه يشاركه في كل أموره من سرائها وضرائها.. حتى بات كل منا يعرف الآخر كما يعرف نفسه، ويتعامل بعضنا مع بعض وكأننا أخوة من أم وأب واحد.. هذا ما كان يسرِّي عن نفوسنا و يجعلنا نتحمل مرارة الغربة، إلى أن كان ذلك اليوم الذي حطت فيه امرأة في الرابعة والثلاثين من عمرها رحلها في شقتنا، امرأة عليها مسحة من جمال، ناضجة الأنوثة، تعرف كيف تتعامل مع شبان عزاب لم يخوضوا غمار الزواج بعد.. ولا داعى أن أشرح لـك الظروف التي رمت بها إلى شيقتنا، وإنها هذا ما حصل..

دبت في البيت حيوية غير عادية وحركة لم أعهدها من قبل، راح كل واحد من رفاق الشلة يهتم بمظهره وبتسريحة

شمعره وأناقة لباسمه ونعومة ذقنمه ويختار كلمات رقيقة أثناء حديث كاختياره لعطره المحبب لها.. رحت أسخر في داخلي من تصرفاتهم، ولم أعر تلك المرأة أي اهتمام وبعد أيام معدودة بات كل واحد منهم قيسًا.. وباتت هي ليلاه.. تدفقت حيويةً الشباب في عروقهم، وتراقصوا على نغمات حب افتقدوها منذ فترة ليست بالقصيرة.. سمعوا زقزقة عصفورة، وشموا أريج وردة، تحقق حلم كان يتوق كل واحد منهم أن يتحقق، فها هي عصفورة جميلة تتنقل أمامه كحجلة، تتكلم برقة ونعومة تنهض قيسا من قبره، فكيف بهم ودماء الشباب تغلى في عروقهم؟ ! . . راح كل واحد منهم كما يقول المثل العامى يشد اللحاف نحوه، ويريد أن يكون هو الفائز .. وراحت المحاولات تترى من كل واحد منهم وأنا أرقب ذلك دون أي اكتراث..

كانت كعجينة شيطانية سهلة التكيف، تُجاري كل واحد منهم على حدة وتجذبه إلى ساحتها المغناطيسية بأسلوب غريب لتنفرد به وتفهمه بأنها تحبه هو وحده، واختارته دون زملائه كلهم وهو المميز والمفضل عنهم والأثير لديها، وهو من

إختاره قلبها.. إلى آخر ما هنالك من تلك الكلمات المعسولة الني تنسفح من فمها بلا أدنى عناء، وكأنها تردد قصيدة قد حفظتها منذ زمن بعيد.. تلك الكلمات المنمقة المعسولة لم تكن في الواقع مجرد كلمات.. لابل كانت في الحقيقة ناب تلك الأفعى السام الذي تغرسه في جسد فريستها لترديها صريعة يسري السم في عروقها..

اندفعت الدماء الشرقية في الأجساد، تلتهب بالغيرة والمحافظة على الحبيبة والاستئثار بها.. فكان صراع عنيف حطم (الشلة).. وفرق الأصدقاء.. وحولهم إلى أعداء يكيد كل منهم للآخر.. ينحر كبش الصداقة للوصول إلى ما يصبو إليه دون الآخرين، ويوجه حرابه المشحوذة إلى صدريها ليكون هو المنتصر..

عندئذ تسللت إلى الأفعى برقة ونعومة فاقت كل نعومة، والتفَّت على جسدي، قيدت حركتي، وراحت تحارب كبريائي التي كانت تحسها في بضعفها الأنثوي، وكلهاتها تروي لي قصة مأساتها مع زوجها السابق وكيف كان يهينها ويعذبها، ويأتي إليها كل يوم في أواخر الليل، وهو ثمل يرغي ويزبد، فيضربها



و يذيقها شتى ألوان العذاب والمهانة وكيف كانت تحاول أن تتحمل تلك الحياة في سبيل المحافظة على بيتها وأو لادها الخمسة، إلى أن طفح الكيل وبلغ السيل الزبى، فطلبت الطلاق وكان لها..

إزاء هـ ذا الضعـ ف الأنثوى، وإزاء تلك الـ روح المعذبة، وإزاء ذلك الجمال، وجدت نفسي مستسلمًا.. فالتفَّت على من رأسي إلى أخمص قدمي، واستولت على روحي وقلبي وأحببتها في البداية حب شفقة على ما أظن.. أليس هذا صحيحًا يا عالم النفس البشرية؟ ! . . وراحت الأيام تمر وتزيدني منها قربًا حتى بت لا أطيق عنها بعدًا، فأحببتها بكل كياني، وأصبحت شعلي الشاغل، خيالها لايفارقني أنبي توجهت في ليلى أونهاري . . حاولت أن أتحرك، أن أبعد، فوجدتها قد استولت على جسدي أيضًا، فبت أسيرًا مكبلًا يلتف على جسدها ضاغطًا يسلبني التنفس بحرية، يسلبني الحركة إلا ضمن دائرة جسدها الملتف حولي بشكل لولبي، لا أستطيع منه هروبًا أو عنه بعدًا، بل كنت حاثرًا أسائل ذاتي: أأحاول

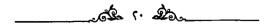
الهروب والبعد؟ !.. أم أبقى على ما أنا عليه من اغتراف اللذة، والسباحة في بحر من النعومة ولوكانت قاتلة..

صدقني يا أشرف أن الأمر لم يكن بيدي، حاولت البعد، حاولت البعد، حاولت الخروب، فوجدت نفسي كالفريسة التي تتبع ضبعها بعد أن استولى على كل مشاعرها.. وارتميت أمامها أصرح لها بكلهات كانت هي كل مناها:

ـ هل تقبلي بي زوجًا؟

ووعدتها بالزواج.. أجل وعدتها.. رغم أنها تكبرني بعشر سنوات، ولديها خسة أولاد.. هل تصدق هذا يا أشرف؟.. كيف تحلل هذا أجبني بالله عليك؟..

ليت الأمريتوقف عند هذا الحد، بل هناك ما هو أمر وأدهى، إذ إنني أعرف تمام المعرفة أن البعض من رفاق الشلة قد تمتعوا بذلك الملمس الناعم، لتلك الأفعى ولعقوا من ثغرها سما ناقعًا، ما زالوا يستشعرون طعمه حتى الآن وما زالوا يحاولون الاستزادة منه، وهي تحاول أن تصدهم لتظهر أنها قد أخلصت لي ولي وحدي..



عندما أركن إلى نفسي بعيدًا عن ساحتها المغناطيسية، أسأل نفسي ما الذي يشدني إلى إمرأة سيئة السمعة؟ ما الذي يدفعني لأن أجري وراءها وأنا مسلوب الإرادة، كحمل وديع مسوق إلى حتفه بلا أي مقاومة؟ كيف أسلس لها قيادي بلا أي وعي مني أو تفكير.. أحاول البعد، أحاول المروب، فأجد نفسي أحوم ضمن دائرتها التي أحاطتني بها، أسبح في فلكها وأرسو على شاطئها، أنجذب إليها كانجذاب الفراشة إلى نار متوهجة، وأعرف أني أسعى إلى نهايتي، فلقد أحرقت حتى الآن معظم جسدي، ولم تبقي مني سوى شبح متحرك لاهث في الجري نحوها، وبقراري الزواج منها بدأت بإحراق الأسطر الأولى من كرامتي ونخوي وشهامتي..

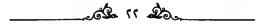
سيحترق جناح الفراشة يا صديقي، ستسقط إلى الأرض، تعفر وجهها بالتراب، تئز، تئن، تدور حول نفسها.. أعرف أنها لن تستطيع أن ترتفع في الهواء ثانية، فلقد فقدت ما لديها من أجنحة.. ولن يفيدها يومًا أن تنعي أجنحتها المحترقة.. النار تجذبها، وتشدها، وتعمي بصرها وبصيرتها، وهي تدرك أنها تسعى لحتفها، أما أنا.. فأنا مدرك ما سأؤول إليه، ومع ذلك

فأنا مندفع بكليتي .. وأنا لا أمني نفسي بأن أجد تلك النار بردًا وسلامًا كها كانت على إبراهيم، بل أعرف أنها ستكون سعيرًا لا يطاق ..

هذا (أنا) اليوم أما (أنا) الأمس الذي تعرفه فإنه لايزورني الانادرًا، وعلى الأغلب أنه سيمتنع عن زياري، فلا أدري أيروق لك أن تحلل أنا اليوم أم أنا الأمس؟.. وهل سترثي لحالي أم تقف ضدي كما وقف أغلب المعارف والأصدقاء عندما علموا بعزمي على الزواج؟

هذا أنا اليوم يا صديقي بلا أسوار، فادرس ما شئت، وأنا موقن بأنك لن تستطيع أن تكتشف كل مجاهل النفس الإنسانية مها أوتيت من عبقرية.. وها أنذا نموذج بسيط لنفس إنسانية تحوي من التناقضات ما يصعب على الجبال حمله.. فإ رأيك؟

بعد أيام سيتم زواجي فلا داعي لأن تزعج نفسك وترسل برقية تهنئة أو تعزية، فأنا نفسي لا أعرف ما الذي يناسب هذا الموقف.. ولك الخيار في أن تحتفظ بصداقتي أو



أن تشطب اسمي من بين أساء أصدقائك، مع أنني آمل أن تستمر صداقتنا..

نك تحياتي صديفك

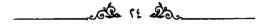


٣- الأمل الكبير (او صندوق خشبي) الحالي

صَعِدا الباص وجلسا في مقعدهما بسرعة، أزاح أحدهما زجاج النافذة بخشونة بالغة وكأنه يريد لكل الهواء الموجود في الخارج أن يدخل عبر هذه النافذة ليلطف حرارته و حرارة أفكاره. راح يتكلم باندفاع بالغ ليتم ما كان قد بدأه من حديث مع زميله قبل صعود الباص:

_أناكما أقول لك الفكرة جيدة جـدًا والربح من ورائها مضمون مئة بالمئة..

- ـ هل أعجبتك المنطقة ودرستها دراسة كافية؟
- بالطبع فهو موقع استراتيجي، لا يدانيه موقع في كل هـذه المنطقة.. وليس هناك موقع آخر أستطيع أن استخدمه لهذا الغرض..
 - _أرى أنك مصمم على تنفيذ هذه الفكرة!..
- _ منـ فد شـ هرين وهـ فه الفكـرة تحفـر في رأسي وتــؤرق جفني..



_و ماذا تريد أن نفعل..؟

- العملية بسيطة جدًا سآتي بصندوق خشبي كبير وأضعه على حافة الطريق عند موقف الباص.. وعندي في البيت طاولة خشبية صغيرة أستطيع الاستغناء عنها سأضعها داخل الصندوق وأضع عليها ركوات القهوة والفناجين.

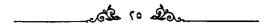
ومن أين ستجلب الماء..

فكرتُ في هذا الموضوع.. سأجلب معي (بيدونين) من الماء كل يوم.. سعة كل واحد منهم عشرون لترًا..

ـ و هل يكفيان لهذا المشروع..؟

على الأغلب لن يكفيا.. فسيكون عندي زبائن كثيرون وسأحتاج إلى أضعاف هذه الكمية من الماء.. ولكن أنت تعرف أن كل السائقين سوف يتوقفون عندي لشرب القهوة.. وسأتعرف عليهم ولا بدأن البعض سوف يخدمني ويجلب لي معه عددًا من (بيدونات) الماء..

الباص يتوقف ويمشي العديد من المرات و هما لا يشعران بأي شيء مما يـدور حولها.. البعض ينزل وآخرون يصعدون



وهما لا يريان أحدًا. محرك الباص الذي أنهكه المسير كانت له جلبة عالية كانا لا يسمعانه مطلقًا، بل كانا يرفعان صوتيهما ويتابعان الحديث في دراسة مستفيضة لهذا المشروع..

_أنت تعرف أنني أفضل من يجيد غلي القهوة.

و الله يا عمى قهوتك لا يُعْلَى عليها. و غدًا عندما يتذوقها السائقون فستجدهم يقفون بالطوابير.. ولكن أخاف ألا تستطيع أن تقوم بهذا العمل وحدك إذا كان العمل كبيرًا إلى هذا الحد!..

ـ على الأغلب سيكون حجم العمل كذلك.. وفي هذه الحال سأستنجد بك يا صاحبي على الأقل لتساعدني في غسل الفناجين وتقديم القهوة...

_والله أنا مستعد.. إذا لم أقف معك في مشروعك هذا فمتى سأقف؟!..

_أعرف أنك لن تقصر أبدًا.. فالصديق عند الضيق.. وبها أنك صديقي فسوف اكشف لك سرًا.. أنت تعلم أن لكل مصلحة سرًا.. وللقهوة ثلاثة أسرار.. عندما تعرفها تكون قهوتك ألذ قهوة في هذا العالم!..

ـ ثلاثة أسرار؟!..

وجهه طافح مستبشر وابتسامة عريضة قد ارتسمت عليه.. وعيناه تلمعان ببريق واضح، فهو مدرك كل الإدراك بأن صاحبه لا يعرف هذه الأسرار.. وسوف يكشف له عنها ويفيض عليه من خبرته وعلمه في هذا المجال..

- أجل يا صاحبي ثلاثة أسرار لم أبح لأحد بها من قبل ولكنني سأرشدك إليها، فأنت صديقي وقد أحتاج بعض الأحيان أن أتأخر لأجلب المزيد من البن فتقوم أنت مكاني بإعداد القهوة.. فعلينا ألا ندع الزبائن ينتظرون كثيرًا!.. أنت تعرف أن السائقين يقفون بضع دقائق يتناولون القهوة ثم يركبون سياراتهم وينطلقون مسرعين..

ـ معك حق يجب ألا نؤخرهم..

- افتح أذنيك واسمعني جيدًا: السر الأول هو اختيار نوع البن.. والسر الثاني كيفية تحميصه وطحنه.. والسر الثالث خلط الهيل وغليه.. وسأشرح لك هذه الأسرار عمليًا كي تتعلمها..



عندما تقوم بصنعها أمامي سوف أتعلمها من أول مرة!..

- هـل تعرف يـا صاحبي أننا سنجني المال الوفير من هـذا المشروع.. ستتغير حياتي وحياتك بالكامل سنصبح من أصحاب رؤوس الأموال.. سأشتري بيتًا جديدًا تدخله الشمس من الصباح إلى المساء، واسعًا كي يلعب به أطفالي بدلًا من اللعب في الحارات..

_إذا أصبح لدينا مال كثير نستطيع أن نطور مشروعنا..

- أجل لقد فكرت في هذا سأضع صندوقًا خشبيًا ثانيًا وثالثًا.. نستطيع أن نقدم بأحدهما الشاي فقد يكون بعض السائقين لا يرغبون بشرب القهوة.. ونستطيع أن نقدم بالآخر بعض السندويشات الخفيفة على الماشي..

_ يجب أن تكون سندويشات مختلفة الأنواع لتلبي أغلب رغبات السائقين!..

_أجل!.. أجل!.. لقد وصلنا.. هذا هو المكان هنا سنضع الصندوق الخشبي..



صاح عاليًا:

_أنزلنا هنا من فضلك!..

قال السائق:

ـ لا أستطيع أن أقف أو أتوقف هنا.. ألا ترى الشاخصة التي ثُبَيّتُ على طرف الطريق؟.. إنها تعني (ممنوع الوقوف والتوقف نهائيًا هنا)!..

في هذه الأثناء جلس في مقعدهما شاب أغلق زجاج النافذة بهدوء لثلا تتطاير خصلات شعره من الهواء.. وراح ينظر في الأفق البعيد!..



٤- الجسلة العجسكة

يلعلع صوت التلفاز خارقًا صمت البيت بشكل دائم، فهو المتكلم الوحيد في البيت، هو المربي.. والمحدث.. والموجه الذي يغرس الأفكار، وسواه مصيخ السمع، معلق البصر بتلك الشاشة السحرية الملونة، ولن يكون العكس يومًا..

باح سعيد لزوجته عن حنقه وغضبه من هذا الجهاز الذي يتكلم دائمًا ويمنعهم حتى من أن يكلّم بعضهم بعضًا، فهم يعيشون كالغرباء، وهم تحت سقف واحد، لا يشارك أحدهم الآخر أفكاره وهمومه وأحلامه، فكل منهم شاخص البصر، مسترخٍ في مقعده يتابع ما يعرض، سواء أكان غثًا أم سمينًا، ونسي حتى أن ينظر في وجوه الموجودين حوله ليبثهم مشاعره ويتحسس مشاعرهم قال لها والجِدُّ بادٍ على وجهه:

- القطط تتمسح بمن حولها، تستجدي عطفهم، وأحيانًا لتشعرهم بمحبتها لهم، ناظرة إليهم بعينين مترعتين بالمحبة..

	٣.	2
--	----	----------

الزوجة:

- أجل كلامك صحيح، ولكنه من ناحية أخرى فقد قرّب المسافات في هذا العالم المترامي الأطراف، وبات العالم قرية صغيرة، وأصبحت وسائل المعرفة متاحة للجميع، والخبر يأتيك ساخنًا..

سعید:

- انظرى ماذا استفدنا من كون هذا العالم قرية صغيرة: سنشاهد الآن نحين والأولاد ما تنقله لنا عدسيات الكاميرا من قتل وخيراب ودميار، سنشياهد الدماء المسفوكة تجري وهي ما تزال حارة على إسفلت فلسطين، وبغداد، وتراب أفغانسـتان.. سنشـاهد عزرائيـل عـلى الهـواء مبـاشرة، وهو يستل الأرواح من الأجساد المتناثرة هنا وهناك.. واسمعي مشكر الأخبار الساخنة التي يتحفنا بها: قطارٌ انحرف عن مساره.. وطائرةٌ فُقِدت بعد إقلاعها بربع ساعة.. وسيلٌ عرم اجتاح بلاد واق الواق.. ورياحٌ عاتية، وعواصف مجنونة دمرت آلاف البيوت، وشردت الملايين، وخلفت وراءها مئات القتلي.. والبحر نظر بعينين حمراوين لليابسة، فحاول

كسر الطوق الذي تفرضه حوله، فاجتاحها (تسونامي).. وخلف وراءه آلاف القتلي والبيوت المدمرة، وزرع ملحه في ترابها وانصرف.. وفي شهال الصين الغربي تزحلق أحد الرعاة وكسرت ساقه اليسري.. وفي مجاهل أفريقيا خرج نمر مرقَّط في السابعة صباحًا إلا خمس دقائق، ولم يعد إلى عرينه حتى ساعة إعداد هذه النشرة.. وعدسات المصورين تلاحق فنانة .. نسيت أن ترتدي كامل ثيابها .. لتحظى منها بلقطة نادرة تشير إعجاب المراهقين، وبحديث تُنَظِّر فيه وكأنها ابن خلىدون أو أفلاطون.. ومحللون سياسيون يذكّرونك بأيام الكهانة القديمة، وبالغجريات اللاتي يمشين في الطرقات، وهن يصحن: بصارة!.. براجة!.. والغريب أنهم يلبسون لباسًا أنيقًا ومزينًا بربطات عنق جميلة، ويعرفون المستقبل من غير أن يحتاجوا إلى ضرب الودع أو الرمل!.. وموسيقى هزيلة.. ومطربون محسوبين على الطرب خطأ يصيحون ولا ستر يحون..

الزوجة:

- أنت لا يعجبك العجب ولا الصيام في رجب، ألا ترى أن هناك برامج ثقافية جيدة ومفيدة، وهناك كوميديا

. اقية ترسم البسمة وتزرع البهجة في القلب، ألا ترى أن بعض المعلومات التي يحملها إليك التلفاز، قد لا يحملها إليك كتاب ولو نظرت بين سطوره؟!..

سعيد

- كلامك صحيح والأمور نسبية إلى حد ما ولكن..

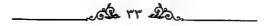
قطع حوارهما جلبة الأولاد وهم يتصايحون:

- أريد أن أتابع الفيلم الأجنبي..
- لا!.. نريد مشاهدة تمثيلية السهرة..
- لا!.. هناك ندوة ثقافية ستبثها المحطة الفضائية الآن ومن غير المعقول ألا نشاهدها..
 - بدي شوف أفلام كرتون ا..

وعلا صراخ الولد ونحيبه..

اختلط الحابل بالنابل، وكلَّ يغني على ليلاه، علا الصياح وازدادت الجلبة، فلكل منهم ميوله وآراؤه..

في ركن قصي من الغرفة كانت تجلس امرأة في منتصف العقد السابع من العمر، صامتة، ترقب ما يدور بغيظ مكتوم، راحت تحدِّث نفسها بعد أن نسى أن يجدثها الآخرون:



- الله ما أجمل أيام زمان، كانت الحياة ماشية على أحسن ما يرام، كانت الحياة هادئة، والكل يحب الكل، وكلهم قلوب بعضهم على بعض، كنا نستظل تحت أشجار الحنان والحب والمودة، وأجمل الروابط كانت تربطنا، كان الجميع يسرون بأن يرى بعضهم بعضًا، و يعرف بعضهم لون عيون بعض:

- أنت لون عيونك عسلي، وأنت لونها أسود، وأنت لونها أشهل. آهِ ما أجمل سهرات أيام زمان، العائلة كلها مجتمعة، والجميع يتبادلون أحاديث السهرة الممتعة، والجدة تتصدر المجلس، والصغار، يطالبوها العديد من المرات، لتحكى لهم الحكايات، فتستجيب لمطالبهم وتحكى لهم من حكايات على الزيبق، والشاطر حسن، وألف ليلة وليلة، وعن بنت الملك الجميلة التي أحبت أحد أفراد الرعية، وعن الجني الذي كان يتمثل بصورة إنسي وله أرجل ماعز.. عيون الجميع مشدودة إلى وجه الجدة، وتعابير الدهشة والمتعة مرسومة على الوجوه.. إيه !.. إيْ والله تلك السهرات كانت تحيي القلب!.. اليوم المرأة عندما تتذكر، وتنظر إلى رأس زوجها تقول له: يا ويلي يوجد شيب براسك !.. متى شبت ؟ !.. آه كانت الحياة تسير ببطء،

	٣٤	£3,
--	----	-----

'كن كنا سعداء، كان يوجد فقر لا أخفي ذلك.. لكن عندما كنا نضحك كنا نضحك من كل قلبنا.. كانت الضحكة صافية مثل ماء بثرنا.. كانت الأشياء الصغيرة تفرحنا، والموقف البسيط يضحكنا، أما اليوم فكل الكركوزاتيه الموجودين في التلفزيون لا يستطيعون سحب بسمة من وجه الواحد.. الناس صارت جامدة!.. غريب!.. الرفاهية موجودة، لكن الحام أكبر.. الكل راكض ركض الوحوش ومستعجل يريد اللحاق بركب الحضارة.. هل هذه هي الحضارة يا ترى؟!.. والله أشبه الراكضين وراء هذه الحضارة بالعطشان الذي يشرب من ماء البحر ولا يرتوى!..

صوت الأولاد وصخبهم مازال يملا جو الغرفة، والنقاش بين سعيد وزوجته مازال قائمًا، والجدة لم تبرح مكانها بعد وخواطر الأيام الخوالي ما زالت تداعب خيالها..

كان بصرنا يستمتع بالحقول الخضراء الواسعة ويرتاح ويتنقل من زهرة إلى زهرة مشل الفراشة، ومشل النحلة.. أما الشيجرة فكانت هي عمرنا، وروحنا، ومن ترابها نمت أجسادنا، كنا نعطيها وتعطينا، كنا نقعد بظلها الظليل، نمسح

عرق الكد والتعب، ونتقاسم اللقمة مع بعضنا، على أنغام زقزقة العصافير، وهبات النسيم الذي لم تلوثه مخلفات حضارة اليوم، كانت البسات تعلو الوجوه، تشعرك بأن الجميع بسطاء وسعداء، والأحاديث بينهم بسيطة ومسلية وأغلبها تحكي عن زواج فلان بفلانة، وعن الرجولة والقوة، وعن الصبر والجلد في العمل. إيه!.. صورة أبي مازالت في مخيلتي حاملًا منجله وهو يسابق ابن عمه وإخوانه في الحصاد، والعرق يتصبب من الأجسام بكاملها وليس من الجباه فقط، أما عروق السواعد وشرايينها فهي منتفخة وكأنها أنابيب نفط.، إيه.. كانت أيام!.. أما اليوم..

ازداد صخب الأولاد وخلافهم فقطع على الجدة أحلام يقظتها فصحت على صوت الزوجة وهي تصيح بأعلى صوتها:

- كفى صياحًا!.. يكاد رأسنا أن ينفجر، أعطوا جهاز التحكم لأبيكم كي يختار القناة المناسبة..

	2 2
--	------------

سعيد:

- دعيهم يعبروا عن آرائهم!.. دعي الديمقراطية تكون هي السائدة في هذا البيت!..

الجدة:

- الديمقراطية!.. إذن اشتر لكل واحد منهم تلفزيونًا!.. حتى يهارسوا ديمقراطيتهم.. فنهرب من ضجيجهم إلى ضجيج التلفزيونات!..



٥- الرحلة المالي

الخطوات ثقيلة، الأقدام تخطوعلى الأرض بصعوبة بالغة، الدهر أتعب المفاصل، وأوهن العظم وأرهق الجسم كله.. آو ما أصعب نقل هذه الأقدام، هل هي ثقيلة إلى هذا الحد؟.. أم أن ثقل الجسم والسنين حملاها فوق ما تطيق؟!..

- _ إلى أين يا جدتي؟
- _إنني ذاهبة إلى بيت عمتك يا زاهر..
 - _ إنه قريب جدًا هل تحتاجين شيئًا؟
- _أجل يا بني تعال أتوكأ عليك ريثها أصل!..

ضحك زاهر وقال:

- _ قلت لك يا جدتي إن بيت عمتى قريب جدًّا..
- ـ تعال يا بني هات كتفك أتوكأ عليها!.. يا الله ما أصعب الحركة!.. لم أكن كذلك يومًا، عندما كنت طفلة في مثل سنك!.. آو ما أجمل تلك الأيام!.. ركضت في هذا الطريق كثيرًا ولعبت كثيرًا.. تسلقت تلك السنديانة العالية، كنت لا أخاف صعود الأشجار كنت خفيفة جدًا ورشيقة.. أقفز..



رألعب.. وأركض من غير شعور بأي تعب أو إعياء.. حقور هذه القرية يا زاهر أعرفها حقلًا حقلًا، جمعت الأزهار، ركضت وراء الفراشات المزركشة الملونة بألوان أحلامي.. واليوم بهتت أحلامي.. كنت أحلم أن أطير مثلها وأتنقل بين البساتين والحقول الفسيحة، لأرقب حقول القمح الخضراء الموشاة بشقائق النعان.. جميل جدًا أن ترقب الحقول من على..

ـ وهل حقًا كنت صغيرة مثلي يا جدتي؟!..

افتر ثغر الجدة عن ابتسامة أنهكتها السنون وهي تقول في نفسها يا لبراءة الطفولة!..

-أجل ياصغيري وهل تحسبني ولدت كبيرة هكذا؟.. لقد كنت صغيرة مثلك وجميلة مثلك وبعدها بدأت اكبريومًا بعد يوم.. وأصبحت فتاة يا بُني.. فكبرت آمالي وأحلامي وتغيرت اهتهاماتي، أحببت جدك وأحبني فأصبحت عروسًا جميلة مليثة بالحياة والأمل، كان عرسنا جميلًا جدًا لقد اجتمع كل الأهل والأحباب وهم يرتدون أجمل ثيابهم، يرقصون.. ويغنون.. كنت يومها نجمة ذلك الحفل الرائع وكنت صاحبة

 &	49	<u> </u>
@_	3	2 5

قوام رشيق ممشوق، وخدين أحمرين، كلون الورد الجوري وليساكما ترى اليوم.. يومها كان جدك يقول لي أنت أجمل إنسانة في هذه الدنيا، إنسانة في هذه القرية، بل أنت أجمل إنسانة في هذه الدنيا، أحبني.. وأحببته وأنجبنا.. آو إن قدمَيَّ تؤلماني وكذلك جميع مفاصلي.. أين ذهبت تلك الرشاقة، وأين ذهبت تلك القوة التي كنت أتمتع بها، إنني اليوم عندما أدوس على قدمي فكأني أدوس على قطعة من الزجاج.. هل يا ترى من الوزن الزائد أم أن عظامي أصبحت ضعيفة كضعفي هذا؟!..

ضحك زاهر وقال:

- ومتى كنت قوية يا جدتي وأنا لاأعرفك إلا هكذا؟!..

- معك حق، فأنت لا تعرفني عندما كنت صبية، أنجبت من الأولاد ستة هم أبوك وأعهامك وعمتك، قمت بتربيتهم جميعًا أحسن تربية، فكنت أقدم لهم الطعام وأغسل ثيابهم وأهتم بكل أمورهم، إضافة إلى صنع العجين والخبز، وكل هذه الأعهال أقوم بها بعد أن آتي من عملي في الحقل.. آو يا بني كم عملت و تعبت في هذه الحياة ذقت حلوها ومرها، والأيام تجري كمياه النهر المسرعة ولن تعود أبدًا، الحياة والأيام تجري كمياه النهر المسرعة ولن تعود أبدًا، الحياة

يا بني كالحلم، اليوم أنت صغير يافع.. وغدًا رجل.. وبعده كهل فعجوز مثلي تحسب للخطوة حسابها.. سلسلة مرتبط بعضُها ببعض، ولها نهاية!.. وأرى هذه النهاية قريبة.. أنا اليوم أعيش منتظرة النهاية، فالطموح والأحلام والأهداف و الغايبات أصبحت كلمات جوفاء، لاتعنى لي شيئًا فضعفي وقلة حيلتي هما ما يشغلاني عما سواهما، فكل شيء قد ضعف في جسـدي، ليـس حركتي فقـط فنظري وسـمعي وشـمي وذوقى كل تلك الحواس قد ضعفت وكأن صلاحيتها للعمل كادت أن تنتهي، حتى الأشياء الجميلة .. يا بني! .. لم تعد تغريني والاتسرني، فعندما كنت صبية كل شيء له طعم آخر، ألذ وأشهى.. أما اليوم فكل شيء أحس به معاد مكرر لا طعم له ولا لون. إيه! . . رحلةٌ طويلة قطعت أشواطها . . فأتعبت هذا الجسد وأنهكته، آه!.. يبدو أنني وصلت إلى خط النهاية.. اطرق الباب يا زاهر!..

عرق يتصبب من جسدها بالكامل، ضيق في التنفس.. تلاشت قوتها بالكامل، هوت إلى الأرض، تحطم كل شيء!..

__________ 11 alo_______

نظر زاهر إليها مشدوهًا، وهو لا يعلم ماذا حصل، صائحًا بأعلى صوته:

_ جدي!.. جدي!..

رحبت الأرض بجزء منها، كان فوقها، وعاد إليها.



7- الصُـرَة وها

ألقت برأسها المثقل بالهموم بين راحتيها، وراحت الأفكار ترسم الخط البياني لزواجها الثاني:

عندما تقدم لخطبتي ما طمعت يومها في ماله ولا عقاره رغم وضعي المادي المتواضع، أردت يومها فقط أن يكون لي حياة زوجية مستقرة كباقي البشر، فوضعي كمطلقة لا يتناسب والفطرة البشرية، كها أن مجتمعنا لا يرحم، ويرسم العديد من إشارات الاستفهام حول المطلقة، و الطلاق وأسبابه.

عندما شاهدته أول مرة جلس كها يجلس التلميذ المؤدب بين يدي أستاذه، مطرق الرأس، محمر الوجه، يسترق النظر بأطراف عينيه، يشكو تقصير زوجته تجاهه وتجاه أولادهما الخمسة وأنه مظلوم في عيشه معها، وأن حياته معها جحيم لا يطاق، وأنه مستعد لطلاقها إن أنا وافقت على الزواج منه، وأنه يسعى لحياة زوجية سعيدة قد حرم منها، وعلى حد قوله هذا هو السبب الرئيسي الذي يدفعه للزواج الثاني، ثم

راح يشرح كيف أنه بنى نفسه بنفسه وكيف انتصر على الفقر وانطلق من تحت الصفر ليكون ثروة هائلة بجهده وذكائه الشخصي.. بعدها راح يمنيني بوعود صورت لي المستقبل معه بأنه الجنة بعينها..

بلعت الطُعم يومها، ولم أرض بأن يطلق زوجته الأولى لئلا أبني سعادي على أنقاض سعادتها.. عشنا الأشهر الأولى من زواجنا وهو يلبس قناع العاشق الولهان المتيم ويطالبني أن أنجب له ولدًا كي يكون الرابط الذي بيننا متينًا وقويًا.. لكن شرخًا في علاقتنا راح يتسع شيئًا فشيئًا ليشكل هوة سحيقة جرّاء غيرته المفرطة: لا تلتفتي!.. لا تضحكي!.. لا تبسمي!.. مع من كنت تتكلمين؟.. إلى من كنت تنظرين؟..

كان يتغزل بعيني ويريدني بالا عيون، ويتغزل بجمالي ويحوك بخياله المريض الشكوك والظنون.. حتى إنه وضع مسجلًا على هاتف المنزل في مكان خفي ليستمع إلى جميع مكالماتي الهاتفية أثناء غيابه، يوم اكتشفته وأبديت انزعاجي لهذا التصرف نزع القناع وأظهر وجهه الحقيقي وأفهمني بأنه



لا يشق بامرأة، وأن المرأة عقلها صغير ولا تتورع عن الخيانة وتنصاع لأي مغر من المغريات، لذلك يجب أن تكون دائمًا تحت المراقبة بل تحت المداس وأن تحصى عليها الأنفاس فهي ناعمة لكنها كالحية سمُّها قاتل.. يوم ناقشته لأفهمه أن الحياة الزوجية لا تقوم إلا على الحب والثقة المتبادلين يومها فتحت أبواب جهنم..

أحست بالخدر يسري في مرفقيها، لكن سيل الأفكار كان يجمدها ويمنعها من الحركة وكأنها امرأة من الجبس.. فحيح صوته ما زال يجرّح خلايا نفسها ويغتال المحبة التي أكنتها له في بدء الزواج وكلهاته ما زالت تحفر في نفسها أخاديد من الصعب أن تندمل:

ـأنتِ أفهم مني؟!.. ومتى كانت النساء أفهم من الرجال؟!.. أنا بإمكاني أن أشتري العديد من أمثالك، بل أجمل منك... بالمال أستطيع شراء ما أشاء من النساء وببريق الذهب أخطف الأبصار وأحنى الرقاب..

- خنقت المحبة بغيرتك العمياء.. واغتلت حياتنا الزوجية ببريق ذهبك الذي يتساوى عندي ونحاس صدئ، ليكن بعلمك أنني وددت بزواجي منك أن أجد إنسانًا..

لكنني وجدت صُرَّة من الغيرة مملوءة بالمال، وهذا المال لن يشتري شعرة مني.. فأنا لست للبيع..

رفعت رأسها من بين يديها، وأطلقت تنهيدة تشبه نفثات البراكين وفي مخيلتها كان يدور كيف تركت له البيت وهي تحمل وليدها بعد أن أجبرها على التخلي عن كامل مستحقاتها في سبيل الحصول على حريتها..



٧- العصافير

000

يـوم وقفت على باب الجنة وطرقتـه بكفين مخضبين بلون أحمر قانٍ، سألني رضوان خازن الجنة:

_من أنت؟..

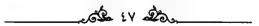
لم يتلعثم لساني أبدًا، أجبته على الفور:

_أنا شهيد من جنوب لبنان، جئت ومعي قافلة من الشهداء!..

_ما اسمك؟..

احترت. حاولت أن أتذكر.. آه.. لم أذكر لي اسمًا أو شكلًا، نظرت إلى نفسي.. وجدت شيخًا كه للا وطفلًا رضيعًا، وشابًا يافعًا وامرأة في التسعين وفتاة لم تتفتح أكمام زهرتها بعد.. تلمست قلبي فإذا هو أرض صلبة قد أنبتت زهرة رويت بدم طفل، لم يكتمل نطق الحروف على شفتيه الرقيقتين بعد.. أردت أن أرد عليه فلم أعرف من أنا!..

جفَّت الكلمات في حلقي.. مزيج من الأفكار تلاطم في رأسي.. موج من الذكريات الأرضية اندفع إلى غيلتى:



- تذكرت.. آه تذكرت.. أنا.. أنا. أنا الشيخ خالد لا أنا الشاب عامر لا أنا الطفلة فاطمة لا أنا الفتاة ثناء.. أوه أنا العجوز.. آه أنا.. من أنا.. الطفل.. أنا كنت واحدًا منهم ساعة انصبت علينا الحمّم الإسرائيلية فعجن لحمي بلحمه، واختلطت أشلائي بأشلائهم.. جرى دمي ودمهم في نهر أحمر ليروي أشجارالزيتون المكسرة الأغصان.. أجل كنت واحدًا منهم: فهل تعرف من أنا؟

رضوان مستغريًا:

- أنت كل هؤلاء!.. لم يأتني شهيد بهذه الصفات من قبل.. أعرف الشهداء الذين سبقوك بالدخول إلى الجنة، كانوا يستشهدون بضربة سيف، أو بطعنة رمح. برمية سهم، أو على أعواد المشانق، برصاصة، أو بشظية.. أما أن يأتيني شهيد مكون من عجينة إنسانية بهذا الشكل، فهذا شيء مذهل!.. بالله عليك حدثني كيف حصل لك هذا؟!..

تزاحمت الأفكار في رأسي.. بـروق، رعـود، قنابـل، صواريخ، شظايا، الأرض تهتز تحت قدمى:

 ٤٨	2
 ٤٨	at 0,

- آه تذكرت!.. أجل لقد تذكرت.. لقد كنت قبل أن أصبح مع تلك العجينة الإنسانية، كنت طفلًا صغيرًا أسكن مع أهلي في بلدة تدعى (قانا)، كنت ألعب في بساتينها وروابيها، كنت عصفورًا أتنقل من غصن إلى غصن، قال لي أبي يومها:

- لايكفي أن تكون عصفورًا جميلًا مسالًا، يجب أن تكون صقرًا لتحمي عشك، فالمناقير الناعمة والبراءة ليس لها عيش في قبائل الطيور الجارحة.. الوردة يا بني رغم كل جالها ورقة ملمسها فإنها تحمى نفسها بشوك تردّبه عدوان المعتدى.. نعم لقد كان أبي صقرًا، يقارع العدوان الإسرائيلي، ويقض مضاجعه بصواريخ الكاتيوشا وما أقل الصقور في هذا العالم!.. كان يدافع عن أرضه، عنى، عن أخوتي، عن كل العرب، كان يقول: الكرامة والشرف هو أن نبذل أرواحنا رخيصة في سبيل وطننا والدفاع عنه.. وفي نيسان ١٩٩٦ـ يا سيدي يا رضوان انصب علينا الحقد الإسرائيلي، نعق بوم الخراب وأتت الغربان السوداء.. تهدمت بيوت (قانا)، حل الدمار مكان العمار، نشبت الحرائق، علا في الجو غبار أسود..

بكت أشجار الليمون، تساقط ورق الزيتون، تفجر تراب (قانا) غيظًا وهو ينادى . وما من مغيث . لقد كان التراب يومها حزينًا.. أتدري يا سيدي لم كان حزينًا؟.. مع أنه يجب أن يكون فرحًا بعودة أبنائه إليه!.. لقد كان حزينًا، لأن هؤلاء الأبناء كانوا عصافيرٌ، ولم يكونوا صقورًا، لقد كانوا وردًا ذا ملمس مخملي ناعم وعبق عطري جذاب، ولكن بلا شوك!.. أزكمت أنفى رائحة البارود والشواء الإنساني، وغبار المنازل المتهدمة.. صرخات نساء تفت نياط القلب.. دمعة حرّى على وجنة شيخ تبلل شعر دقنه الأبيض.. رقية تحثو التراب على رأسها.. صوت محمود المتفجريزأر: يا الله قتلوا أولادي الأربعة!.. عيونه تحملق ببقايا جثثهم، يحضنهم، يقبلهم، يصطبع وجهه وثيابه بلون أحمر.. والزوجة تقف شاخصة العينين، كتمثال حجري نحت منذ آلاف السنين.. والعجوز زينب ترفع يدها فوق رأسها لتتقى الحمم الهاطلة .. قذيفة تسقط فوقها وفوق يدها.. تختفي العجوز.. آهٍ أيتها العجوز كم أحبك وأحب حكاياتك، عن الشاطر حسن، وأبي زيد الهلالي، وسناء محيدلي، وصواريخ الكاتيوشا.. الوجوه صفراء متقعة، وعندما ينبجس الدم ينبجس أحمر حارًا قانيًا.. نحن

ني عروقنا يا سيدي رضوان سائل أحمر يجري يدعى الدم، لا نستطيع العيش بغيره، ولكن لا تستغرب إذا قلت لك إن بعض الأجساد قد استبدلت دمها بسائل ليس فيه من الدم إلا لونه، فأصبحت باردة الأجساد كضفدع هرِم في كُمُون شتوي.. في ذلك اليوم يا سيدي عندما تهدمت منازلنا وتفجرت الأرض تحت أرجلنا طارت أسراب من بين العصافير حاملةً فراخها وأنا كنت من بين تلك الفراخ لتحط بجانب قوة الطوارئ الدولية التابعة لهيئة الأمم المتحدة وتحتمي برايتها. . لتأمن من شر الغربان السوداء، فأعطونا بعض الخيام لتكون منزلًا لنا.. ولكنهم لم يستطيعوا أن يجعلوها سكنًا لنا ولا أمنًا.. هيئة الأمم هذه يا سيدي أعضاؤها هم أغلب دول الأرض وقد وجدت هذه الهيئة لتحقق العدل العالمي ولتنصف المظلوم من الظالم وقد أسلمت هذه الدول قيادها لخمس دول لها حق يدعونه حق الفيتو الاعتراض وهذا الحق يخوِّل أي دولة من هــذه الدول الخمس بإلغاء أي قرار تتخذه هذه الهيئة معارضًا لمصالحها.. آو ماذا أقول يا سيدي يا رضوان لقد أُسْلِمت الشياه للذئب ليكون أمينًا عليها.. فكان خير أمين!.. كلما جاع افترس شاة، يومًا في شمال الأرض، ويومًا في جنوبها

ويومًا في وسطها.. الشياه تستغيث تستنجد تطالب بحقها في الحياة، ترفع عريضة احتجاج موقّعة في أسفلها ببصمات مخضبة بالدم، مربوطة بها أشلاء متناثرة لشيخ وامرأة وطفل، وموثقة بأشرطة الفديو.. تستلم الذئاب الاحتجاج.. تراوغ.. تربت على الأكتاف.. تطلب ضبط النفس.. تنهش من الخلف نهشَ مسعور.. تأكل وجبتها وتسترخي للاستمتاع، ريثما تحضّر لنفسها وجبة أخرى.. تسترخي على مقعد وثير، تدخن الغليون -البايب- يتصاعد دخانه أمام الأنوف، يغطى على دخان جميع الحرائق في هذا العالم، تتخدر الشياه برائحته تحلم بمرج أخضر.. هذه هي الهيئة المطالبة بالعدل في هذا العالم ولدينا هيئة أخرى أصغر منها حجيًا لا أريد أن أكلمك عنها البتة، فهي لا تستطيع أن تحمي نملة، وليس لها إلا قراران: نستنكر !.. ندين!.. فقط لا غير.. لا أحب أن أطيل عليك يا سيدي لئلا تدعوني ثرثارًا.. يوم نزلنا في الخيام بجانب قوة الطوارئ الدولية، وتظللنا برايتها، نطلب الأمن والسلامة، جاءت الغربان.. تحمل في صدرها الحقد الأسود الذي قد عشش فيه منذ آلاف السنين.. نعق بوم.. انصب الحقد.. ارتعشت الأرض، نفثت غبارها عاليًا كقطع فِطر كبيرة.

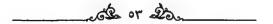
نحمل في جوفها رؤوسًا.. وأقدامًا.. وأيادي.. وصدورًا.. وأشلاء.. لقد كنت أنا بينهم يا سيدي، عُجِنَت أجزاء جسمي بأجزاء أكثر من مئة عصفور وعصفورة، وعجنت أشلائي بأشلائهم، واختلط دمي بدمهم، الدم حار وأرض الجنوب في سجنها عطشى تنادي الصقور يا سيدي.. هل علمت الآن كيف تشكلت هذه العجينة؟.. وهل تعذرني لأنني لم أعرف فورًا من أنا؟..

هز رأسه النوراني بأسى وأردف قائلًا:

- سمعت منك عجبًا، وشوَّ قتني لأرى كرتكم الأرضية، تعال.. سأفتح نافذة من النوافذ الساوية المطلة على عالمكم، تعال ننظر سويًا إلى تلك الأرض التي كنت فيها.. انظر هذه هي أرضكم.. سهول.. جبال، وديان، بحار.. كم هي جميلة أرضكم هذه!..

_أجل جميلة عن بعد!..

لنقرب الصورة أكثر.. آو ما هذا؟!.. دبيبٌ كدبيب النمل، غدُوُّ ورَوَاح، حركة دائبة، سيارات، قطارات،



طائرات، بواخر!.. ما أعظمك أيها الإنسان!.. لنقرّب أكثر!..

_أوه هذه هي لبنان.. هذا هو الجنوب.. هذه (قانا).. تلك الأرض الحمراء.. المصبوغة بالدم، هذه أشلائي وأشلاء أخواني، ما زالت نعانق التراب، أترى؟.. هنا.. كانت عملية العجن..

قطَّب رضوان حاجبيه وبدا عليه حزن ملائكي وقال بتأثر:

- لِنَرَ مناطق أخرى علَّنا نروِّح عن أنفسنا..

وراحت النافذة السياوية تعرض له ملخصًا للحركة الأرضية: قتال مستميت في الشيشان.. مثات الضحايا.. دودايف يفتح جرحه للشمس، راقصة باليه في أحد مسارح موسكو تستعرض لياقنها الجسدية آلاف الأيدي تصفق.. يد فلاح تزرع، آلاف الأفواه تأكل إنتاجه وتعبه، مجازر في البوسنة والهرسك.. آلاف القتلى.. عمليات اغتصاب.. سرقة.. نهب.. قتل.. مسجِّلةٌ تصدَح: (الليلة عيد عا الدنيا سعيد).. مؤامرات تحاك في الخفاء.. خطط إستراتيجية

وضع لقضاء الإنسان على الإنسان.. أناس بسطاء يريدون الحياة بحرية وكرامة.. تُسْتهلَك بساطتهم ويُسْتغَلّ شقاؤهم وتعبهم. . أكفُّ مرفوعة نحو السهاء تؤمِّن على دعاء. . عقولهم شاردة في عالم آخر ولا يعون على ماذا يؤمّنون.. أفغانستان يتناطحون فيها كها تتناطح الخراف.. يهرق دم.. عيون ملأي بالدموع، آلاف اليتامى . . صوت المسجِّلة ثانية: (حبّ إيه اللى أنت جاي تقول عليه).. ولادات محاطة بوجوه فرحة متهلِّلة.. مبروك.. وفيات.. وجوه عابسة، مقطِّبة، دموع منهمرة.. عظَّم الله أجركم!.. شيخ بلحية بيضاء ووجه متجعد حفَر عليه الزمن أخاديد عميقة، أكفُّه مرفوعة إلى السياء يطلب العفو والعافية والجنة.. عاهرة تبيع جسدها.. صديق يخون صديقه .. غِشّ .. خداع .. مكر .. سمكة كبيرة تأكل أختها الصغيرة!..

أغلق رضوان النافذة بعصبية وأردف قائلًا:

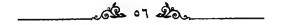
أوه!.. ما هذا العالم الذي تعيشون فيه.. ما هذا العالم المليء بالمتناقضات الغريبة العجيبة، أعهاركم الأرضية نادرًا ما



تتجاوز عُشْريوم سياوي واحد، وبهذا العمر القصير جدًا، تقتلون، تنهبون، تكنِزون، تستهترون، تستعبدون، وكأنكم ستعيشون الدهر كله.. هذا غريب!.. غريب!.. لماذا لا تعيشون بسلام؟.. فأرضكم واسعة، وتكفي الجميع!.. فلماذا يعتدي أحدكم على الآخر ويحتل أرضه؟.. لماذا ينهب أحدكم لقمة أخيه مع أن الطعام وفير؟!.. لماذا يعيش شعب كالعكق على خيرات شعب آخر؟!.. كلُّكم بنو آدم فلهاذا لا يتعامل بعضكم مع بعض كأخوة؟.. لماذا تتقزم الإنسانية بينكم لتفقد معناها؟.. أعهاركم قصيرة وآمالكم كبيرة، عدّلوا آمالكم على قدر أعهاركم، أنتم من التراب وإلى التراب، فلم لا تحكّمون عقولكم؟!..

غضضتُ الطرف خجلًا أمام رضوان من الأعمال البشرية ولم أُحِر جوابًا.. رمقني رضوان بنظرة عاتبة قائلًا:

- هل هناك ما يغري بالعيش على تلك الأرض المليئة بالمتناقضات؟.. أليست جنة الخلد هذه أفضل من أرضكم بملايين المرات؟..



بادرته قائلًا:

- جدي كانت تقول لي بأن من يموت صغيرًا يصبح عصفورًا من عصافير الجنة.. وأنا لا أريد أن اكون عصفورًا..

رضوان مستغربًا:

- وماذا تريد أن تكون؟

- أريد أن أكون صقرًا..

يا صغيري عندما يزهر ربيع القلوب، ويُلْقَى الحقد في بئر منسية مردومة في صحراء مجهولة.. وتختفي الغربان إلى الأبد، فلا حاجة لأن تكون صقرًا..

نظرت إلى روحي فوجدت جناحين ملونين صغيرين ومنقارًا مدبَّبًا ناعهًا، زقزقت زقزقة خفيفة تعني:

- هل تسمح لي بالدخول إلى الجنة يا سيدي؟ رضوان مبتسمًا:
- لاتؤاخذني لقد تأخرت بإدخالك، لقد قلت لي إنك قد جئت ومعك قافلة من العصافير.. أهلًا بك وبمن معك!.. ادخلوها بسلام آمنين!..

٨- المتحامي

000

السيارة تئن تحت حمولتها، الطريق يبدو له بلا نهاية، يمتد أمام ناظريه كأفعى سوداء ملتوية.. والشمس ترسل لهيبها في تلك الساعة من الظهيرة.. تتورد وجنتاه، وتتقاطر حبيبات عرق من جبينه فتتسلل إلى عينيه، يشعر بتخريش أملاح العرق في عينيه يمسح جبينه بكم قميصه، يضطرب الجفنان فيرفرفان كطائر مذعور، يعركها بظاهر قبضة يده.. يعود ليحدق في الطريق مخافة أن تنحرف السيارة عن خط سيرها، صوت من المسجّل يخترق أذنيه:

(بعيد عنك حياتي عذاب..)

تنشد القبضتان على المقود، ينضغط الفكّان أحدهما على الآخر، يتجعد الجبين.. (بعيد عنك حياتي عذاب..)..

الصحراء وامتدادها، والطريق الخالي إلا من عدد قليل من السيارات، الطريق الذي لا ينتهي، كل ذلك يزيد من شعوره بالوحدة.. بالبعد.. بالغربة.. يتكوَّر خلف المقود، ينكمش، يتلوُّلُ الحرمان داخله، ينتفض كأفعى..

 ٥٨	22	

أين الأهل؟.. أين الخلان والأصحاب؟.. أين أنتِ يا زوجتي العزيزة لأفضى إليك بهموم قلبي؟.. أين أنت لتخفُّفي عني ما يعتمل داخلي؟.. كم أتـوق إلى أن أجلس جانبك، أتكلم.. وأتكلم.. أقصّ عليكِ كل صغيرة وكبيرة أمرُّ بها، بل كم أتوق إلى سماع صوتك الدافئ يغسل نفسي من أدرانها، يزرع الحب والأمل والحياة، مسكينة أنت تجالدين وتصبِّرين نفسك على البعد فتسبحين معي في بئر من الحرمان لا يتضب. أحيا وكأنني لا أحيا هل أستطيع أن أسمى هذا الضياع من العمر حياة؟.. إن كنت أستطيع أن أسميها حياة فهي حياة أشبه بحياة كلاب، فنحن مطاردون منبوذون كالكلاب الجُرُب.. فعندما تجتمع شلة السائقين في (البرحة) تسارع الشرطة إلى مخالفتنا ومنعنا من الوقوف.. نحن الوجه المخزي بالنسبة للبلد .. ماذا يعني سائق؟! .. يعني شيئًا لا قيمة له، يعني إنسانًا منبوذًا، يعني أنه من الطبقة الدنيا في هذا المجتمع، وليس من يهتم لأجله، إن هو عاش أو مات!.. نلا حَق في أرزاقنا، في لقمة العيش يا للسخرية!.. لماذا درست القانون؟.. لماذا ضيَّعت ست عشرة سنة من عمري في الدراسة ألكى أصبح سائقًا لسيارة نقل - 6 og 23.

كبيرة تلتهم بعجلاتها آلاف الكيلومترات.. آو.. القانون الذي درسته ينص بأن للجميع حقَّ الحياة الكريمة .. لابد أن الذي درسته في الكتب يبقى بين دفاتها و لا يرى النور إلا على مقاعد الدراسة .. كلام نظري في الكتب والواقع شيء مغاير له تمامًا.. الواقع.. الواقع.. الواقع أن المركز الاجتماعي هو ما أصبو إليه فقد مللت أن أكون منبوذًا.. مجرد سائق ينتظر زبونًا لينقل له حملًا من مدينة إلى مدينة، وعندما يأتي السيد الزبون يتحلّق حوله عشرات السائقين كل يجذبه إليه، وكأنه يشحذ منه لقمة عيشه، شيء مقرف!.. كلما أتذكر هذا المنظر أحس أن شيئًا ما داخلي يتلاطم يريد أن ينطلق من فمي.. وعندما أكون سعيد الحظ وأستطيع أن أنتشل الزبون من بين كل تلك الأيدي الممتدة وتلك الألسن التي تحاول الجذب، يكون لي نصيب الأسد وهومبلغ من المال قد لا يكفيني مصروفًا وأنا بانتظار حمل آخر والرسائل تتوارد من الأهل أرسل مبلغ كذا أرسل.. أرسل.. من أين لي أن أرسل؟.. من أين؟!..

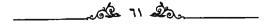
الشمس تصبّ جام غضبها، يحس أن الإسفلت بات كقطعة إسفنج طرية تحت العجلات، ثيابه أحسها وقد

لتصقت تمامًا بجسده، وباتت ثقيلة لاتطاق، حرَّك جسده بضيق ظاهر، تأفّف بصوت عالٍ وكأنه يريد بتأففه هذا أن يطفىء هذا اللهيب الذي يلفه من الخارج والداخل.. وعيناه كعينى نسر ما زالتا تحدقان في الطريق..

علبة حديدية متحركة تحمل عشرات الأطنان، أتكوّم في زاوية صغيرة منها أقودها أحرّكها تنطلق مسرعة، أودعتها نفسي، وضعتها تحت رحمة هذه العلبة الحديدية الصهاء.. لا بد أنها المجازفة!.. المجازفة!.. لقد جازفت حين قررت العمل بعيدًا عن ترابي، فهربت مني سنوات من العمر، وضاعت في مجاهل الحرمان والغربة، تحطمت هذه السنوات داخل نفسي فترهّل الشباب داخلي، وطرق السأم بابي فوجده مشرعًا، مللت الطرق، مللت المسافات، مللت العربة!..

أتــوق إلى الاســتقرار، إلى الهــدوء، إلى عمــل ضمــن اختصاصيي ودراستي..

يقطع سلسلة أفكاره سيارة آتية من الاتجاه المعاكس، تترنح كسكرى، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، تنشد



أعصابه، يقبض على المقود بقوة، يخفف من سرعة سيارته يلتجىء إلى أقصى يمين الطريق، ولكن لا مفر فالسيارة القادمة متجهة إليه مباشرة، ليس أمامه إلا الهرب بعيدًا عن الطريق، اندفع بسيارته إلى الصحراء حيث الرمال الناعمة.. نزلت السيارة القادمة هي الأخرى على جانب الطريق، ثم عادت ثانية إلى الطريق المزفت واعتدل سيرها، نظر في المرآة الجانبية ثم قال يحدث نفسه:

- المسكين!.. إنه على الأغلب نائم وهو يقود سيارته.. أقول عنه إنه مسكين؟!.. وقد كاد أن يصدمني ويودي بحياتي؟!.. أجل إنه مسكين فهو على الأغلب تعبّ جدًا والمسافة التي قطعها كبيرة، فكم من مرة نمت وأنا أقود سيارتي وغفوت عشرات الكيلو مترات والسيارة تسير وحدها!.. إنها المجازفة بعينها، والحياة على كف عفريت!.. آوه!.. آوه. الرمال الناعمة اللعينة إنها تبتلع العجلات.. أوه!.. ولا تتقدم سنتمترًا واحدًا!.. والعجلات تدور في أماكنها!.. ولا تتقدم سنتمترًا واحدًا!.. أوه!.. لقد توقفت، لافائدة من الجلوس الآن خلف المقود، يجب أن أنزل وأزيح بعض

الرمال من أمام العجلات، أو أضع بعض الأخشاب تحتها، وإن لم يكن هذا ولا ذاك، فسأجرب إفراغ قليلٍ من هواء العجلات..

مكتب أنيق، لباس نظيف، حذاء لماع له كعب ينقر الأرض نقرًا.. متهم يجلس متكورًا تتلولب كلماته، ترتعش، ميزان العدالة معلَّق في صدر المكتب:

- ـ بريء ا.. صدقني إني بريء ا..
- المهم عندي هي الحقيقة.. الحقيقة هي فوق كل شيء.. العدل هو ما أصبو إليه وأسعى لتحقيقه، وإن كنت صادقًا في كلامك فلن ينالك أذى:
 - ربنا يديمك ناصرًا للحق والعدالة..

أصابعه تنغرس في الرمال تسحبه بعيدًا عن طريق العجلات، ثوبه الطويل الملطخ ببقع من الشحم، اكتسبت بقعه لونًا جديدًا جادت به الرمال..

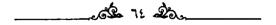
قطع من الخيش والخشب دسَّها تحت العجلات، عرق يتصبَّب من جميع أنحاء جسمه، الدماء تندفع في عروقه مسرعة وكأنها تفتش عن شيء أضاعته..:

ـ بوصفي محامي المتهم، الموكل بالدفاع عنه، ألفت نظركم إلى أن لا توقعوا عقوبة على هذا الإنسان البريء!.. وهناك العديد من القرائن والأدلة التي تشير إلى براءته، ألتمس منكم يا سادة تحقيق التوازن بين كفتي الميزان المعلق فوق رؤوسكم قبل النطق بالحكم..:

- والآن وبعد كل هذه المحاولات لابد أنني سأخرج من هذا المأزق. . سأجعلها تمشي ببطء شديد في البداية لثلا تعود الرمال لابتلاع عجلاتها وبعدها أسرع باتجاه الطريق المعبد، فالسرعة هنا منجاة..

قبض على المقود بقبضتيه، تجعّد جبينه وتغضّن، عيناه تنظران إلى البعيد، وكأنها لا تريان شيئًا، رجله اليمين تدوس على دعسة المازوت، ببطء شديد تتحرك السيارة، يشدّد قبضته على المقود، رأسه مندفع نحو الأمام وكأنه يشجع السيارة أن تتقدم، تخرج السيارة من مرقدها، ينطلق مسرعًا باتجاه الطريق المعبد، تراوده فكرة.. يبتسم:

- إننا محرومون من كل شيء ناعـم إلا هذه الرمال التي كادت تهلكني بنعومتها.. ما أحوجني الآن إلى حمام أغسل به



فسي جيدًا، فالرمال ورائحة العرق شيء مزعج فعلًا ولكن أين هو الحمام؟ . . وأنا بيتي هذا الطريق وهذه الصحراء.. أين الغرف والبيوت؟ . . لقد اشتقت إلى أن أكون بين أربعة جدران وسقف!.. أرتدي لباسًا نظيفًا، أنام على سرير وثير، ووسائد مريحة تحيط بي، زوجتي تحمل إلي فنجان قهوة الصباح، وتوقظني بقبلة، مع زقزقة العصافير وهواء الصباح المنعش.. آه أين أنا؟.. شيء يدعو إلى القرف والاشمئزاز!.. الملـل قاتـل.. والغربة باترة، تبتر أيامًا مـن عمري وكأنها تهزأ بتلك الأيام فتتساقط كوريقات شجرة في خريف حزين.. الحزن، الكآبة، الكبت، القلق، الموت، كلمات أتجرَّع طعمها وأنا وراء هذا المقود، في هذه العلبة المتحركة، الطريق ما زال طويلًا!.. عساني أفرغ حمولتي بسرعة في الدمام.. وأجد حملًا إلى الرياض مباشرة..

حدق في الطريق عبر زجاج السيارة بعينين تشبهان عيني نسر، وصوت المسجِّل ما زال يصدح:

(بعيد عنك حياتي عذاب..)



۹- بنزین ص

- ـ هيه ... يا الله !..
- ـ مع بعض يا شباب..

قهقهةٌ يتلوها صوت حادٌّ عالٍ صائحًا:

- -بنزين!.. بنزين!..
- ـ واحد.. اثنين.. ثلاثة.. ادفعوا!.. يا الله!..
- ادفعوا دفعة رجل واحدا.. يد الله مع الجهاعة..
 - -بنزين ا.. بنزين ا.. احرق بنزين ا..

الصخرة لا تتحرك وكأنها ملتصقة بالأرض، وستة من الشباب يدورون حولها كالنمور يتفحصون من أين تؤكل الكتف.. والصوت يرافق كل حركة دفع صائحًا:

- _بئزين ا.. بئزين ا..
- -ضع قطعة خشب هنا.. ارفع من هناك.. مع بعض.. مع بعض..
- من الصعب دحرجتها، كسّروها في مكانها، هاتوا (كوم بريسة) وبساعة من الزمن تصبح قطعًا صغيرة!..

 r 200.	7 23	

النمور تصول وتجول حول الفريسة والمحاولات تترى والصخرة العنيدة تقاومهم والموسيقى التصويرية المرافقة مستمرة في عزفها: بنزين ا... بنزين ا...

أحد المتفرجين انزعج من ذلك الصوت الحاد الذي يصيح: بنزين، فاقترب من أحد أصدقاء الشاب الصائح، وقال له:

_لم يصيح هذا الشاب وما قصته مع البنزين؟..

ضحك صديقه وقال:

_كان الحلم الكبير لصديقي هذا هو أن يشتري موتورًا (دراجة نارية).. كان هذا هو الحدف الذي يضعه أمام عينيه، وكل تفكيره ينحصر في هذا الحدف، ولا هدف آخر يعلو عليه، كان يتكلم عن (الموتور) وكأنه يتكلم عن صبية حسناء امتلكت فؤاده، لكنه لا يملك مهرها، فالمهر غال والجيب فارغ، ومن أين له بالمال ما دام الفقر صديق له؟.. لكنه تعب وشقي ووضع القرش فوق القرش وصبر كثيرًا كنه تعب وشقي دوضع القرش فوق القرش وصبر كثيرًا حتى تحقق حلمه واشترى (موتورًا)، عندها لم يكن ينزل عن ظهره فكان يركبه دائها بضرورة وبغير ضرورة والسعادة تقفز



من عينيه، وهو ينطلق كالصاروخ يشق الهواء شقًا، مترنهًا بأجمل موسيقى.. هي تلك التي تصدر عن (الموتور).. لكنه بعد أشهر وجد نفسه لا يستطيع أن يجمع بين تكاليف حياته وثمن البنزين، فاضطر إلى بيع (الموتور) وتبخر الحلم.. وحل علمه حرقة في القلب وغصة وهومنذ ذلك الحين بمناسبة وبغير مناسبة يصيح بنزين!..

أخيرًا.. استطاع النمور دحرجة الصخرة وبرهنوا لها أن إرادتهم أقوى من عنادها، ووقفوا وقفة المنتصر فرحين لاهثين واندلع الصوت الحاد صائحًا:

بنزين ا.. بنزين ا.. الله يعطيكم العافية ا.. الآن أنتم أيضًا تحتاجون إلى البنزين فقد صرفتم الكثير ا.. بنزين ا.. بنزين ا..



ساعة قديمة معلقة على جدار غرفة النوم، رقاصها ينوس يمنة ويسرة، كأنه نول يحوك خيوط الزمن الهارب..

تناهى إلى سمع كمال الذي يغط في نوم قلق صوت أربع دقات على ناقوس الساعة، انتبه من نومه، تحسس السرير بجانبه وعيناه مغمضتان، لم يجد زوجته، فتح عينيه بانزعاج، حدق بالسرير على ضوء الغرفة الواني - ذاك السرير الذي شهد ليلة زفافه الأولى - بغيظ وحنق بالغين تدحرجت الكلمات إلى قرارة نفسه:

-حتى الآن ما زالت تجلس إلى الكمبيوتر؟!.. يا لهذا الجهاز اللعين!.. أمعقول أن تجلس إليه كل هذا الوقت بلا كلل أو ملل؟!..

ما الذي يشدها إليه إلى هذه الدرجة؟.. فهي على هذه الحال منذ عدة أشهر، تختلق مشكلة وتدخل غرفة الكمبيوتر، وتوصدها من الداخل، ولا تسمح لأحد بولوجها ما دامت فيها.. لقد أهملت الأولاد!.. أهملتهم في طعامهم، في

لباسهم، في دراستهم، أهملت البيت أهملتني.. آه!.. ما الذي حصل؟.. لقد انقلبت حياتنا كلنا رأسًا على عقب لقد أصبح البيت جحيهًا لا يطاق.. آه!.. لقد كلّ لساني من جراء ترداد الطلب إليها الاهتهام ببيتها وأولادها وبي أيضًا.. لكن.. على من تنادي؟!.. ليس هناك من مجيب!.. العقل أرخى سدوله، وعلى العينين غشاوة لا ترين، وكها يقول المثل العامي (فالج.. لا تعالج).. آه!.. لقد امتطى الملل صهوة نفسي، هذا الفارس المقيت، راح يقتل الكلهات على لساني قبل أن تنبس بها شفتي، ماتت الكلهات قبل أن تولد.. وهل للميت قوة التغيير؟!..

عشرون عامًا مذ تزوجتها.. لم تكن بهذا الإهمال يومًا كما هي اليوم.. أنجبنا أربعة من الأولاد، كبراعم الورد الجوري، التي لم تتفتح بعد، كان جهدنا منصبًا على تأمين حياة لائقة، فغمرناهم بحبنا وعطفنا وحناننا، آملين لهذه البراعم أن تتفتح عن ورد يفوح عبيره في بستان هذه الحياة..

حياتنا الزوجية مرت هادئة رتيبة نوعًا ما، خلا بعض الخلافات البسيطة التي لا تخلو منها حياة زوجية، والتي يسميها البعض (فلفل الحياة الزوجية).. ولكنني أرى اليوم

أن الفلفل قد طمى ولم يبقَ غيره وأصبح مذاق حياتنا لا يطاق..

أحسَّ بالخدر يسري في جنبه الأيمن فتقلب إلى الأيسر، وتداعت أفكاره بين اليقظة والمنام، تسربلت أفكاره بغلالة رقيقة ضبابية.. ناست كلماته داخل نفسه كرقاص ساعة حائطه القديمة:

لعل كل شيء لا يتحرك يصيبه الخدر، فالحياة الراكدة في طريقها إلى الخدر ثم النزوال.. لا بد من التجديد.. لابد من الخركة.. لابد من التغيير الذي من الحركة.. لابد من التغيير .. آه!.. ولكن هذا التغيير الذي قلب حياتنا رأسًا على عقب، هل يعني التجدد في الحياة؟.. وهل هو تغيير نحو الأفضل أم نحو الأسوأ؟..

أشعر أنني أهوي في بئر سحيق مظلم، وللأسف أشعر أن الأولاد يتبعون خطاي ويهوون كها أهوي.. حياتنا فقدت طعمها وتخلت عن دفئها.. فهل ثمة زوجة تهجر فراش زوجها لعدة أشهر من أجل جهاز لا روح فيه؟.. حجتها الواهية ما زالت تتجذر في أذني:

- الكمبيوتر عالم قائم بذاته، بالمعلومات التي يحتويها، بشبكته العنكبوتية، التي تضع العالم كله بين يديك، فأنا مثلًا أقضي معظم سهراتي التي أترككم بها أتصفح (الإنترنت)، أتواصل مع أختي في استراليا، أسهر معها أكلمها وتكلمني، أراها وتراني، أتجول في بيتها.. في حديقتها.. أليس هذا رائعًا؟!.. العالم كله قد تغير..

ليتنا نأخذ من هذا الجهاز محاسنه فقط ونبتعد عن مساوئه فهو سلاح ذو حدين. فلنستعمله أداة بناء ولا نستعمله أداة هدم.. لكن قولي لي:

هل من المعقول أن تسهري كل يوم مع جهازك ومع أختك وتهملي عائلتك وبيتك وأولادك؟!.. كما لك حقوق علينا، لنا أيضًا حقوق عليك.. أليس كذلك؟.. لماذا لا تجيين؟..

تتلفع بصمت ربها كان يعني الكثير.. ربها كان هذا الصمت يُخمّر وجه الحقيقة، ويعتم على ما يحصل في تلك الليالي الداجية.. ولكن ماذا يمكن أن تفعل امرأة وحيدة في غرفة موصدة من الداخل؟.. يزعجه هذا التفكير، يتململ،

يغزو النوم جفنيه، يستسلم لسنة من النوم تحاول الأحلام التسلل إلى مخيلته، لكن شيئًا ما داخل نفسه كان يكبلها ويرميها أسيرة مهيضة الجناح..

صوت المؤذن ينساح عبر أثير الغرفة، مناديًا لصلاة الفجر، تدغدغ سمعه كلمات الأذان: الله أكبر.. الله أكبر.. ينتشل نفسه من سرير الأحلام الأسيرة، تغزوه أفكار اليقظة، يعاوده صوتها ويخزه كالإبر:

ـ لماذا لا تغازلني؟ !.. لماذا لا تقول لي كلامًا حلوًا؟ !..

-عشرون عامًا مضى على زواجنا، هل تريدينني كما أنا في أيام الخطبة على الدوام؟.. وهذه العِشْرة التي بيننا أليس رباطها أمتن من الكلمات؟.. ألا تحمل لك معاملتي الطيبة ونظراتي الحانية كل معاني الحب، بل لعل الكلمات تقف عاجزة عن التعبير عما تحمله نظرة حب واحدة..

آه!.. كم من مرة جلدتني بنظراتها، وهي تنتظر كلمة إطراء أو غزل، هل أنا مقصر في هذه الناحية?.. لعلها ثغرة في حياتنا العاطفية!.. لكن هل من المكن أن يستمر المرء في مغازلة زوجته طول العمر؟.. إنني أحبها وقد أسكنتُها قلبي،

لكن عجلة الحياة التي تطحننا قد تنسينا حتى أنفسنا أحيانًا.. أوه!.. فلأذهب إليها وأمطرها بوابل من الكلمات التي تحبها، وتروي زهرات أنوثتها..

انتهى المؤذن من ندائه، عم الجوّ هدوء يشي بشيء ما، لعله الهدوء الذي يسبق العاصفة، أو.. أو.. راح يسترق الحطا باتجاه بابها.. الباب غير موصد على غير العادة.. لعلها فتحته بعد أن خلدنا إلى النوم، اقترب من باب الغرفة، سمعها تتكلم، تجمّد في مكانه كرجل من الجبس له عيون لا ترى لكن له آلاف الآذان التي تسمع دبيب النمل.. ضحكات خافتة، كلام عشق وغزل وهيام مبتذل رخيص، كلمات تحاكي كلمات بنات الليل في المواخير.. اقشعر جلده، أعصابه شُدّت كوتر، سحابة سوداء خمّرت عقله.. انطلق كالمجنون إلى داخل الغرفة.. عيناه تنقبان.. تبحثان بقلق بالغ عن المعشوق.. ندت عنه صيحة مطعونة في كبدها:

ـ أين هو؟..

كانت وحيدة في الغرفة مع كمبيوترها، كانت مستلقية وهي عارية تمامًا أمام عدسة الكاميرا، وعلى الشاشة صورة رجل عار هو الآخر، كان هو الطرف المحاور..

هزيم الرعد في صوته.. انهيارات وبراكين اندفعت إلى سطح نفسه، السائل البركاني أحرق كل الأيام الجميلة، بثانية واحدة، أحرق المودة أحرق الرحمة، قتل الحب فسال دمه كليات متسائلة مستغربة:

- _ما هذا؟؟؟!..
- _ لا تُسِئ الظن إ.. إنها دردشة !..
 - _ماذا؟!.. دردشة؟!..

وانطلقت من فمه ثلاث رصاصات أردَّتُها مطلقة:

_أنتِ طالق!.. طالق!.. طالق!..

رقاص الساعة القديمة في الغرفة المجاورة كان ما يزال ينوس يمنة ويسرة، كنول يحوك خيوط الزمن الهارب!..



۱۱- ر*جل بلا شوارب* حکی

- والله لقد تعبت كثيرًا.. لقد مللت هذا العمل.. فأنا منذ ما قبل العاشرة من عمري وأنا أكد وأتعب وأشتغل... أنا برقبتي عائلة .. أخوة صغار ربيتهم .. أنا أكبرهم .. صبيان وبنت.. تصور ثلاثة أطفال والطفل الرابع الذي هو أنا هو المسؤول عن تربيتهم وتأمين حاجياتهم من طعام وشراب وطبخ وغسيل.. أنا أم، وأب، وأخ.. أنا لم أعش طفولة أبدًا، لقد ولدت رجلًا مباشرة لكن دون شوارب!.. لذلك تزوجت وأنا في السابعة عشرة من عمري، حتى تحمل عني هذه الزوجة بعض أعباء البيت، حياتي كلها ركض بركض.. تصور أن الحصيان يركيض زمنًا معينيا، بعدها لابيد له من الاستراحة، أما آن لي بعد عشرين عامًا من الركض في مهنة (نجارة البيتون) أن أستريح؟!..

بهذه اللهجة السريعة والجمل المتقطعة ومن بين لهاثه، أثناء دقه المسامير في ألواح الخشب كان يتكلم عن ماض، وحاضر، وكأنها الآن يرتسان بين مطرقته ومساره. دهشت لهذه العفوية في الطرح ولهذه النفس التي مُمِلّت من الأعباء والهموم ما ينوء بحمله رجال ذوو شوارب معقوفة، وعقول راجحة، قلت كمن يقرر شيئًا بديهيًا:

- إذن أبوك متوفى!..
- ليته كان متوفى، لكنا استرحنا منه!..
- ما هذا الكلام؟.. هل يتكلم أحد عن أبيه بهذا الشكل؟!..
- أبي.. هـ و الـ ذي دمرنا وجعل حياتنا جحيمًا.. كان يتعاطى المخدرات، فأهدر ماله وكل ما ورثه عن أبيه وبعدما عولج وتخلص منها، أدمن الكحول ولا يزال، فهاذا ترجو من مدمن؟..
 - وأين أمك وما هو موقفها من كل هذا؟!..
- كانت على شجار دائم معه وتركت له البيت العديد من المرات، وفي مرة من هذه المرات تركتني عنده، وأنا في الشهر الثاني من عمري، لتشعره بعبء المسؤولية.. أتعرف ماذا فعل؟ لقد حملني إلى بيت أهل أمي، وطرق الباب ثم وضعني على عتبة الباب وانصرف لكن الموجودين في البيت



لم يسمعوا الطرق، فأتى كلب وحملني بأسنانه وولى هاربًا، انتبه أحد الجيران فلحق بالكلب وخلصني من بين أنيابه.. شيء لا يصدق أليس كذلك؟..

نظر إلى وابتسم ابتسامة صغيرة بينها كانت مطرقته ما تزال تطرق الخشب وكأن بينها وبينه ثأرًا قديمًا، ثم تابع قائلًا:

- وبعد أن أنجبا أربعة أولاد استحالت الحياة بينها فكان الطلاق، بعد ذلك مباشرة تزوج أبي وتركنا لنعيش في بيت جدي لأمي، لكن بيت جدي كان صغيرًا جدًا، وحالة جدي المادية ضعيفة جدًا مما دفع بأمي إلى القبول بالزواج من رجل بعمر أبيها، أما أنا فلم أرض أن أعيش عبنًا على جدي الفقير ففكرت مباشرة أن أبدأ بالعمل وهذا ما كان وأنا لم أبلغ العاشرة بعد، وما إن تجمّع لي بعض المال حتى فكرت باستعجار بيت يضمني وإخوي لكنني عانيت كثيرًا في البداية إذ لم يرض أحدٌ أن يؤجرني بيته ومن يرضى أن يؤجر بيته لطفل في العاشرة.. كم تمنيت يومها أن يكون لي شوارب!.. تدخّل بعض أولاد الحلال لدى أحدهم فأجّرني بيته، وهكذا تدخّل بعض أولاد الحلال لدى أحدهم فأجّرني بيته، وهكذا

|--|--|

صرت مسؤولًا عن عائلة، أمي توفيت بعد سنوات قليلة...
لقد ماتت من حسرتها علينا، زوجها الثاني كان نادرًا ما يسمح لها بزيارتنا أو بزيارتنا لها.. أختي تزوجت والحمد لله.. وأخي هذا الواقف أمامك عندما كان صغيرًا سقط من على سطح البيت عندما كان أبي مشغولًا بحهامه المحلق بالجو، إذ كان الحيام عنده أفضل من أي واحد منا.. وكانت نتيجة السقطة يدًا كتعاء، وارتجاجًا بالدماغ لم يشف منه حتى الآن، وأخي الثالث حاليًا يقضي حكمًا بالسجن لمدة ستين..

- بالسجن!.. ماذا فعل؟

- كان يعمل في لبنان وكان يدخر المال الفائض عن مصروفه مع صديق له متزوج وذلك خوفًا عليه من السرقة لأن سكنه غير آمن، وعندما قرر المجيء إلى سورية استرد المال من صديقه وحين ذهب لكي يبدل الدولارات إلى العملة السورية قبض عليه لأن جميع ما كان يحمله من دولارات كانت مزيفة، وأنا أعرف تمام المعرفة أنه مظلوم، أنا مربيه... لقد سرقه صديقه!..

نظر إلى ثم قال:

- عاثلة زرع فيها البؤس فهل تستطيع أن تجني غير الشقاء؟..
 - وأنت أليس عندك أولاد؟..
- عندي ثلاثة أولاد وأنا أكد وأتعب الآن من أجل تأمين مستقبل جيد لهم، وإنني أعلمهم أفضل تعليم لعلي أترك لهم في فمهم ولو ملعقة من تنك، فملاعق الذهب بعيدة عن أمثالنا..

وراح يتابع عزفه لمعزوفة المطرقة على المسهار والخشب وكأنه نسي التعب والملل، بل نسيني ونسي كل ما حوله..



۱۲- ساحقق وجودي مصر

000

قال:

- أحبك!..

خرجت الكلمات من فيه لتروي غابة الحب المورقة في قليها..

لقد قالها أخيرًا.. أحبك.. لشدَّ ما انتظرتها، كانت تستقرئها في عينيه، في نظراته، في لفتاته، لكن نظراته الضبابية لم توح إليها إلا بالغربة، كانت تشعرها بأنها نظرات بلهاء، لا توحي بأي عاطفة، وحينًا آخر كانت تلك النظرات تتلمسها، فيختلج جسدها، يطَّرِد وجيب قلبها، تحمر وجنتاها، ترتبك حركة أعضائها.. يديها.. عينيها.. مشيتها، كل شيء يضطرب، وهي تسبح في ذلك البحر من الأمل..

قلبي ينبوع متفجر يفيض له بكل ألوان الحب، أتغذى بمرآه، وأشرب ضحكاته، وأكتحل بصورته قبل منامي ليكون حلمي الجميل في ليلي الحالك الظلمة..

آه.. يتلولب حبه في قلبي فأرعاه وأنميه، بعيدًا عن العيون الفضولية، بعيدًا عن الأفواه.. بعيدًا عن الكلمات..

_______ AN 200._____

هل أسجنه في قلبي؟!.. هل أبعده عن النور والهواء لئلا يحترق كقطعة فوسفور.. فيفتضح أمره؟.. إن ما يزيدني حرقة نظراته تلك.. نظراته البلهاء التي لا توحي بشيء، نيران نيرون في قلبي.. وقطب متجمد في قلبه!.. ما أصعب الحب من طرف واحد!.. ما أصعبه!..:

- أجل أحبك يا ريم.. لماذا شحب وجهك؟.. لماذا تنظرين إلى هكذا؟ أنا سامر الذي كنت تحرسينه بنظراتك، وتحملين له بداخلك ما تحملين.. لعبنا في الحارة سويًا، تراشقنا بالصواريخ الورقية، أكلنا مناقيش الزعتر، عدونا في طول الحارة وعرضها، لعبنا عروسة وعريس، ضربتُ ابن الجيران يومًا لأنه أراد أن يكون العريس، إذا كانت العروس هي ريم فلا عريس لها سواي.. أفهمتم؟!..

قالها بعفوية وهو يكيل الضربات لابن الجيران.. كنا صغارًا، وشربنا السنوات سنة بعد سنة، وأزهر حب سامر في قلبي وأثمر.. ولكن.. لكن أين عريس الأمس؟.. لقد استبدل بحاسته لي نظراتٍ لا تحمل أي معنى، النظرات البلهاء تلك.. ثلوج جبل الشيخ، ثلوج القطب، تتكدس في

لبه فجمدت نظر اته! . تُقْتُ إلى نظرة حرّى تنتشلني من آبار البعد و الغربة الجليدية، كنت كعصفورة خائفة لم ينبت ريشها بعد، تنتظر المنقار الذي يأتي ليتعانق مع منقارها، ويعطيها أكسير الحياة.. يمدها بالدفء والحنان والمحبة..كنت أخاف ألا أحصل على ذلك الإكسير يومًا، لكنه قالها اليوم أجل لقد قالها اليوم، قال: أحبك!.. لقد هرب الدم من أطرافي، من وجنتي، من عروقي، إلى قلبي الذي تسارعت ضرباته، حتى خيل إلى أنني أسمعها بأذنيّ ويسمعها هـ وأيضًا.. عالم من السعادة انتثر على كرذاذ منعش في صيف حار.. حلقت في دنيا جميلة حلوة لم أعرفها من قبل، قبضت على السعادة متلبسة بنشوتها واستودعتها قلبي، تاهت الكلمات على شفتى، ماتت مثات الجمل، قبل أن أرد عليه بتلك الكلمات الراعشة اللاهثة:

- _ماذا قلت؟..
- _قلتُ إنني أحبك يا ريم !..
- _ لقد سمعت نداء قلبي إذن..
- ـ نداء قلبك؟.. نداء قلبك سمعته من قبل أن أولد، فهو يعيش في كياني، في حركتي، ومقامي..

_

ثم قال باسرًا وكأنه أراد أن ينبهها بأنه ليس غبيًا:

ـ ونظراتك إلى كانت تؤكد حبك لي أكثر وأكثر..

-آه يا حبيبي !..

ـ حبيبتي أنت!.. سيثمر حبنا هذا، سـتكونين زوجتي، والمتربعة على عرش قلبي يا مليكتي الجميلة..

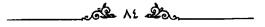
عاشت الحب، عاشت السعادة، بكل أبعادها، حلّقت في جو لازوردي جميل، حملها الخيال في لياليها إلى جزيرة نائية بعيدة عن العيون، تعيش فيها مع سامر كعصفورين غِرِّيدين، يزرعان الألحان ويقطفان الحب..

عام كامل انتشت فيه برحيق الحب، بنت في أحلامها العش الزوجي الذي سيضمهما والأولاد.. وأسماء الأولاد..

ـ سأسمي الولد الأول ربيعًا.. اسم جميل كربيع حبنا، وحبنا كله ربيع، ليس فيه خريف اطلاقًا، والولد الثاني سأسميه.. والولد الثالث..

وكانت نظرة.. لقاء عابر غير منتظر.. رأته ولم يرها.. شهقت، خرجت كلمات من فيها:

- آه يا إلهي ما هذا؟!..



أحست بطعنة نجلاء تمخر عباب قلبها الزاخر بالحب والأمل.. فنَزف الحب، وطرح صريعًا على أرض الخيانة والكذب والنفاق..

_يتأبط ذراع فتاة غيري؟!.. هل نزع حبي من قلبه وألقاه لتلك الشقراء لتنهشه كذئبة جائعة؟!.. هل رمى بذلك الحب في مهاوي النسيان؟!.. لا!.. لا أصدق.. مستحيل!.. ولكن ما هذا الخاتم الذي يلتمع في إصبع يده اليسرى؟.. آه لابد أنه قد تزوجها.. يا.. وأنا ماذا عني أنا؟.. آه ضياع ووهم وسراب.. وكلهاته ماذا عن كلهاته؟..: (حبيبتي أنتِ.. سيثمر حبنا هذا ستكونين زوجتي.. والمتربعة على عرش قلبي يا مليكتي)!..

هراء.. كلام فارغ يجتره كها تجتر الجهال.. البيت الزوجي الأولاد.. أسهاء الأولاد.. وهم خادع؟!.. خيال؟!.. خرافة.. كنت أؤمن بها.. كيف؟ كيف؟.. كيف ذلك يا إلهى؟!..

راحت تجر جسدها وروحها المطعونة، ذلك الجسد الذي يرتجف وكأنه تحت وطأة تيار كهربائي، باتجاه بيتها.. قرأت التفاهة في الوجوه، رأت كل العيون دائرية الشكل كحلقة،

رأت الثعابين والأفاعي وهي تتدثر الحقارة داخل الصدور، أوحى إليها صخب الشارع وضجيجه بهدير بحر يموج بالقرف.. كانت تحرص في مشيتها ألا تتلامس مع أي من المارة، كانت تخاف أن تتلوث من ذلك الوحل الذي يغطي طبقات من الغدر والخيانة.. أحست وكأن قواها قد أبحرت بقارب ابتعد عنها فجأة إثر موجة عاتية..

ألقت بجسدها الصريع على سريرها، ولاح لها للحظة فكرة باهتة بأن السرير لن يستطع حملها هي والآلام المحشوة في رأسها.. تجاذبتها أفكار اليأس، استشعرت الهزيمة.. صراع مرير، انهيارات وزلازل داخل رأسها وبسركان في القلب ثائر.. دموع انهمرت من عينيها علّها تخفف من بركان قلبها، وتقتل جراثيم هذا العالم وتغرقه في طوفانها.. دموع.. ودموع ودموع!.. ومن خلال الدموع:

- الحب.. ما هو الحب؟.. الكلمات المنمقة الحلوة؟.. الوعود؟.. الأمل؟.. السعادة؟.. الوهم؟.. الضياع؟.. الضياع؟..

استشعرت من كلمة الضياع لدى نطقها خوفًا يتسلل بدناءة إلى روحها، ليتكلَّب بها، خافت.. انتفضت.. صحت من صدمتها تلك صاحت بأعلى صوتها:

- لا!.. لا!.. لن أضيع، فمن المؤكد أنني ما خلقت لكي أضيع، بل خلقت كي أحقق وجودي، خلقت لشيء أجلً وأسمى من الخضوع والذل والانكسار.. أنا أصلب من أن أكسر، ولن أرضى الإهانة، فأنا إنسانة وسأحقق وجودي!..

مسحتُ دموعها بكفيها، وانطلقت إلى نافذة غرفتها وفتحتها بهدوء بالغ وراحت تنظر إلى الأفق البعيد وشيء ما يدور في رأسها!..



۱۳- *سمڪٽ حرة* کھی

توقفت السيارة، نزلت العائلة بأكملها، تنفس عبد الله الصعداء، زفر زفرة أصدرت صوتًا عاليًا يشبه الصفير، وقال كمن خرج من قوقعة ضيقة كادت أن تكتم أنفاسه:

- آه لقد كنا مكدسين بعضنا فوق بعض كأفراخ السمك في علبة سردين. علق الأب هازلًا مضفيًا على الجو نوعًا من المرح:

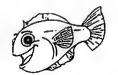
سمك السردين يا بني عندما نخرجه من العلبة يكون
 بلا رؤوس، أما نحن فها زلنا نحتفظ برؤوسنا.

صاحبت الأخبت الصغرى وهبي تحرك يديها حركات بهلوانية إلى الأعلى والأسفل قائلة:

- ونحتفظ بحركتنا يا بابا، أما هو فلا يتحرك.

ضحك الجميع ولف السرور الجميع بردائه.

يافطة كبيرة على مدخل واسم لمطعم فخم، كتب عليها بالخط العريض (سمكة

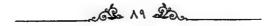




حرة)، وبجانب هذه الكتابة رسم لسمكة رافعة زعنفة ذيلها إلى الأعلى وكأنها شراع يتحدى العاصفة. لفتت هذه العبارة انتباه عبد الله حملق بعينيه الواسعتين برسم السمكة وذيلها المنتصب، تأملها جيدًا، حك رأسه، ثم راح يحدث نفسه:

- السمكة الحرة.. أم.. أم.. سمكة حرة.. جميلة هي الحرية.. لعل هذه السمكة قوية جدًا حتى استطاعت أن تفرض نفسها على الجميع وتكون حرة، ولكن هل الحرية تستدعي أن يكون الحر قويًا حتى يمتلك الحرية ويحافظ عليها ويهارسها؟!.. وإلا لا يكون حرًا؟!.. آه من المؤكد أن هذه السمكة تسبح عندما تريد، وتلعب عندما تريد، وتذهب حيثها تريد، تأكل ما تشتهي إنها تنفّذ كل ما يجول في رأسها المدبّب هذا، إنها حرة.. سمكة حرة!.. يا الله ما أجمل حياتها بل ما أجمل الحرية!..

تحلق الجميع حول طاولة أنيقة داخل هذا المطعم الفخم، مراعين العادات والتقاليد المتبعة في مثل هذه المطاعم التي تحمل نجومًا لا أدري ما عددها.. مراعين طريقة الجلسة.. الكلام الهامس.. الضحك الخافت.. وحتى طريقة استعمال



السلاح القابع على الطاولة المؤلف من الشوكة في الجهة اليسرى والسكين في الجهة اليمنى والذي يستعمل عادة في المعارك التي تدار رحاها على طاولات تلك المطاعم..

اقترب النادل من الطاولة برصانة مبالغ فيها، مرتديًا بزة سوداء داكنة وقميصًا أبيض منشًى القبة وربطة عنق حمراء اللون، تحسبه للوهلة الأولى أحد المسؤولين الكبار في إحدى الهيئات الدبلوماسية.. انحنى قليلًا وهو يقف بجانب الأب، وقال هامسًا:

- ماذا تريدون أن تأكلوا حضر تكم؟..
 - التفت الأب إلى أفراد عائلته قائلًا:
- هيه!.. ما رأيكم؟!.. ماذا تحبون أن تأكلوا؟..
 - کے ترید!..
 - لخيًا مشويًا!..
 - كبابًا إ.. وشيشًا ا..
 - سمك!..
- لدينا سمكة حرة يا سيدي.. ومطعمنا متخصص في هذا النوع فها رأيكم؟

	٩.	2 20
--	----	-------------

- أجل.. سمكة حرة!..

حملت عبد الله بوجه النادل، تأمله مليًا وهو ينطق كلمتي (سمكة حرة)، طغى عليه فضول حب المعرفة، أراد أن يعرف كيف تكون هذه الحرة، وهل هي بالفعل حرة، وكيف تعيش؟.. كيف تمارس حريتها؟.. وهل ذيلها منتصب باتجاه الأعلى كها رآه في الرسم على اليافطة؟ وهل يتحدى الأمواج؟ وهل؟.. وهل؟..

قال للنادل بصوت مرتفع، لفت إليه انتباه الجالسين إلى الطاولات المجاورة:

- أريد أن أرى هذه الحرة..
 - لا بأس تفضل معي!..

انطلق عبد الله مسرعًا خلف النادل يحدوه أمل كبير في أن يرى الحرية في أزهى صورها وأبهاها، لطالما حلم بالإنسان الحر، لطالما حلم بعناقيد الحرية تتدلى وقد آتت أكلها..

قال كمن يكلم نفسه:

- لقد سبقتنا هذه السمكة، نحن بني البشر، واعتلت صهوة الحرية، وما نحن ببالغيها إلا بشِتَّ الأنفس، فكم

क्ट ११ व्यक्त

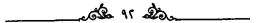
ناضلت شعوب وكم ضحت في سبيل نيل استقلالها وحريتها، كم رُوِي ترابٌ بدماء وصُبغ بلون عندميَّ قانٍ، كم وكم نصبت أعواد مشانق للمطالبين بهذه الحرية.. آه.. وهذه السمكة تعتلي عرش الحرية!.. ما أروعها.. لعلها ضحت كثيرًا.. لعلها ناضلت كثيرًا أم لعلها ولدت هكذا حرة؟.. كها قالوا بأن الإنسان يولد في الدنيا حرًا، لعلها كذلك..، ولكن لأ أدري من أباح لصيادي الحريات أن يقنصوا حرية الآخرين ويجعلوهم عبيدًا أرقاء، ظهورهم جاهزة دائهًا للامتطاء.. آه.. هذا العالم ما أعجبه؟!.. البعض يمتطي والبعض يُمتكلى، البعض يستعبد والبعض يُستعبد، البعض يقتل والبعض يقتل والبعض يُقتَل!..

صحا على صوت النادل وهو يقول له:

- تفضل انظر هذه هي السمكة الحرة..
- كيف تقول إنها حرة؟ . . إنها ليست حرة إنها حبيسة هذه البحرة الصغيرة! . .

ضحك النادل وقال له:

- ألا ترى إنها حية؟ انظر إنها تسبح !..



- إذا كانت حية فهل هذا يعني أنها حرة؟.. نظر إليه النادل باستغراب وراح يؤكد له ثانية:
- انظر.. انظر إليها يا سيدي، إنها حية.. إنها تسبح..

بركة صغيرة ألقي فيها عشرات الأسياك، فلا تستطيع السمكة منها أن تمارس سباحتها بشكل طبيعي لضيق البركة وازدحام الأسياك، نظر عبد الله إلى بركة السمك وجفناه يرفر فان كجناحي فراشة اقتربت من النار، محاولًا إمعان النظر ليرى كيف تستطيع هذه السمكة من ممارسة حريتها في هذه البركة الصغيرة.. أدار ظهره للنادل، راح يتأمل البركة وما فيها.. وهو يكلم نفسه وكأنه يجاور السمكة:

- حرة!.. حرية!.. تبًا لكِ ولهذه الحرية الضيقة، من أين سرقت هذا الاسم الضخم (الحرة)؟.. يا من تسكنين هذه البركة الشبيهة بالبوتقة، يا حبيسة هذه الحفرة!.. يا حبيسة كل ما حولك!.. بل يا حبيسة جسدك، هل فكرتِ يومًا بالانعتاق عا أنت فيه؟.. هل فكرتِ يومًا بالبحر الواسع؟.. هل فكرتِ كيف تمارس أخواتك حريتهن به؟.. إنه واسع واسع جدًا.. الحرية في البحر.. هناك تسبحين بحرية، وتتحركين كها

تشائين، وترقصين على نغمات الأمواج، وترقدين بين شُعَب المرجان، وتحلمين، وتتحقق أحلامك، هناك في البحر حيث تورق أعواد الحرية وتزهر، تكونين اسمًا على مسمى.. تكونين بالفعل (الحرة)!..

أورى زناد فكره، تطاير شرر الأفكار، فأضرمت نار المعرفة، صهرت الأفكار، نفت خَبَثَها كما ينفي الحديد خبثه، هِزَّة داخل نفسه أحدثت زلزالًا عظيمًا قوَّض صروحًا كانت عامرة، وأبرز جبالًا شمًا شوامخ كانت خافية، رأى الحقيقة جلية واضحة بعين قلبه، صاح صيحة مدوية جابت أرجاء نفسه فتردد صداها داخل منعطفاتها وعميق أغوارها:

- البِرْكة.. البحر.. الحرية.. أين هي الحرية؟.. ما هي البركة؟.. ما هو البحر؟.. آه!.. البركة سبجن ضيق مقيت يضيق على الجسم وعلى الروح.. أما ذاك البحر الذي يصفونه بالواسع، والذي كنت أراه منذ قليل بأنه مرتع الحرية ومضارب خيامها، في هو إلا سبجن واسع كبير، لا خلاص منه ولا فكاك، آه أيتها السمكة لقد منيتك بالبحر الواسع منيتك بالجرية لا تؤاخذيني لأن هذه الأمنية ستبقى أمنية من

لصعب تحقيقها.. فاسبحي أنى شئت فإنك لن تكوني إلا في هذا السجن الكبير وليس لك منه خلاص..

ربت النادل على كتف عبد الله قائلًا:

- ما بك يا سيدي شارد الفكر، ألم تر سمكًا يسبح في الماء قبل الآن؟..

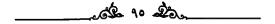
انتشل عبد الله نفسه من بحر الأفكار وثاب إلى شاطئ البركة، حيث النادل ما زال واقفًا بجانبه وهو يحملق به بعينين بلهاوين:

- آه!.. عفوًا!.. آه!.. رأيت سمكًا من قبل، رأيت..
 - أي سمكة تريد؟..

ودون أن يجهد نفسه بأدنى تفكير، أجاب لاشعوريًا:

- آه!.. الحرة..
- كلهن أحرار يا سيدي.. فاختر إحداهن..

غاص ثانية في أغوار نفسه، يجمع لآلئ المعرفة، تاركا المحارات الفارغة تتقاذفها الأمواج لتلقي بها إلى شاطئ النسان..



- ماذا يقمول اختر إحداه ن؟.. أنا أختمار !.. أنا أحكم بالموت على إحداهن ! . . هذه البركة هي عالمها أم لعله عالمي أنا؟!..، أأنتشلها من عالمها هذا وأدفع بها إلى الموت؟!.. دور مَنْ فيهن الآن؟.. مَنِ التي ستغادر هذا العالم إلى عالم آخر؟!.. مَن التي كتب عليها الرحيل من غير أي مشيئة منها؟ . . مَن التي سيتوقف الزمن في عمرها ولن يزيد ثانية واحدة؟.. آه!.. هل أنا سمكة؟.. لعله دورى!.. أم دورها؟.. هل سيبكيها أخواتها؟ . . هل سيفتقدنها؟ . . هل سيحزن لرحيلها أم سينسينها بعد لحظات ويعدن إلى حياتهن الطبيعية؟.. ناسيات أو متناسيات أن هناك شبكة ستصيدهن الواحدة تلو الأخرى، فمن عليها الدور غدًا وبعد غد وبعد.. وبعد.. هل ستفرغ البركة من السمك ولن يبقى فيها سمكة واحدة؟..

صاح بأعلى صوته:

- أيها النادل أين الأحرار اللائي زعمت؟.. الكل سيغادر هذه البركة رغمًا عن أنفه!.. أيها النادل ألستَ سمكة أنت الآخر؟.. متى ستغادر؟.. متى ستنتشلك الشبكة؟.. قهقه النادل بضحكة عمت أرجاء المكان وهو ينظر إلى عبد الله باستغراب ويقول له:

- أأنا سمكة؟ إ.. أهكذا تراني؟ إ.. إنك مخطئ يا سيدي فأنا الصياد وها هي الشبكة بيدي !..

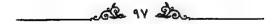
- هكذا يتراءى لك ولن تتعدى كونك سمكة وستكون يومًا داخل هذه الشبكة !..

راح النادل يكلم نفسه:

- لابدأن هذا الشاب معتوه.. ولا يعرف ماذا يتكلم..، فلا طائل من النقاش معه!..

أشاح بوجهه عنه.. وألقى شبكته في البركة ورفعها مسرعًا لتحمل سمكة وقع عليها الدور في المغادرة، راحت السمكة ترقص وتتلوى بعنف على أنغام سيمفونية الموت التي كانت تعزف لحن الجبروت.. نظر النادل بلا اكتراث إلى عبد الله وقال له:

- هل تريد أن أرسلها إلى المشواة أم إلى المقلاة؟ ..



دون أدنى تفكير، انطلقت كلماته من عقالها، كما تنطلق السهام من قِسِيِّها:

- أرسلها.. أرسلها إلى الجنة.. إلى الجنة.. هيا!.. هيا!..

وانطلق يعدو خارجًا من المطعم، والعيون ترقبه مستغربة تصرفاته وهو يصيح:

- أنا سمكة!.. أنا سمكة سجينة!.. أنا لست سمكة حرة.. الشبكة..

غاب عن الأنظار وأصوات عائلته تنادي: عبد الله!.. عبد الله!..



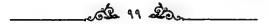
۱۶- *شهر عسل* ههی

القطارا..

قطار الزمن يطوي مسافات عمري، ينهب أرض أيامي، ويلقيها في غياهب النسيان، يجرق أحلامي، يحرق طموحاتي، ينفثها في فضاء العدم، فتصبح نسيًا منسيًا.. هذا القطار عجلة دائبة الحركة إلى الأمام، تطحن كل من يقف في طريقها، تدوسه بلا أدنى رحمة أو شفقة.. عجلة جبارة مخيفة تتدخل في كل شيء في هذه الطبيعة، تتدخل حتى في أجسامنا.. في وجوهنا، فتضعفنا بعد قوة، وتدخل التجاعيد في وجوهنا بعد نضارة، تأخذ منا كل شيء بعد أن أعطينا كل شيء.. يالها من عجلة!..

هاأنذا قد وصلت إلى الأربعين من عمري، وقطار الزمن قد التهم ويلتهم أيامي يومًا بعد يوم.. وشهرًا بعد شهر.. يلتهم فرحي ويجتر آلامي..

آه.. أنا من أنا؟.. لقد كتب في بطاقتي الشخصية بضعة أحرف تدل على اسمي (سهى) من هذه الـ (سهى)؟.. هل أعرف من أنا؟..



أأنا أيام ضائعة?.. أيام قد داسها القطار.. تجاوزها.. قتلها.. أحرقها.. لم يُرْقِ منها إلا أيامًا جليدية تعج بالصقيع!.. هل ذبل الورد وآن الأوان لتتساقط أوراقه؟.. هل جمّد الصقيع ماء الحياة في الأنسجة؟.. هل أنا في سن الكهولة؟.. هل وصلتُ إلى سن اليأس؟.. أم سن الأسى؟.. هل وهل.. وهل؟..

أين سهى الصغيرة الدلوعة التي كانت تحظى باهتهام العائلة بأسرها والتي كان يدللها الجميع؟.. فهي البنت الصغرى التي تملأ البيت بالحياة والحركة والنشاط.. كيف لا.. وأنا آخر العنقود كما يقولون؟..

اهتم بي الجميع وأشبعوني حبًا، ومهما كبرتُ فإنني لا أزال في نظرهم البنت الصغرى التي تحتاج إلى الدلال والاهتمام..

أنا في الأربعين.. أجل في الأربعين من العمر، وحتى الآن لم أسمع زغاريد زفافي، ولم أسمع ضرب الدفوف، تزفني إلى رجل أحلامي..

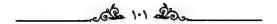
رجـل؟!.. من هو هـذا الرجـل؟.. أتوق إليـه ليضمني إلى صدره بسـواعده القوية، يعتصر آلامـي، يروي ظمأ تلك السنوات العجاف من عمري، ينسج لي عشًا داخل قلبه، فأبنى له سكنًا داخل قلبي..

آه أين ذلك الرجل؟.. انتظرته طويلًا!.. إنه الحلم الذي أعيشه، بل هو حلم كل فتاة.. هكذا خلقنا، كقطبي مغناطيس كل قطب يجذب الآخر بشدة ويتوق إليه..

قُرع على باب الزوجية.. جاء أخيرًا رجلٌ.. الحلم سيتحقق، سألبس الثوب الأبيض.. القلب نبت له جناحان، طار ورفرف عاليًا، تراقص فرِحًا نشوان، دقاته أصبحت له نغمات جديدة تضاهي سمفونيات العالم بأجمعها..

شاب في الخامسة والثلاثين من العمر، أشقر الشعر، ذو قسمات ناعمة هادئة، يبدو متجلببًا بنوع من الرزانة، له نظرات حادة، تغوص إلى ما تحت الثياب والجلد معًا..

هل أفتح له باب قلبي؟.. إنه الطارق الوحيد.. إنه رجل.. لابد من فتح الباب لهذا الطارق وبسرعة لثلا يعود قافلًا، فلا يطرق الباب ثانية..



أسكنته قلبي مباشرة، جمعت سني عمري كلها بين يديه، وأزحت ستار حياثي، فكشفت له عن معاناتي وحرماني وشقائي.. ناجيته في سري وعلانيتي، وبثثته لواعج قلبي..

راح يروي ظمئي بكلهات رقيقة ناعمة.. راحت ترسم في قلبي تغريد بلبل عاشق.. فبدا لي وجه الحياة المشرق الباسم..

دقت طبول الفرح.. راحت الدفوف تشنف الآذان.. وهاأنذا قد ارتديت الثوب الأبيض، ونظرات الأهل والأقارب تكلله وتكللني بالمحبة والفرح والمباركة..

عيـون من حولي مـلأى بالفرح وقلبي يزغـرد كعصفور صغير لم ينبت ريشه بعد..

إحساس لم أشهده من قبل، إحساس لذيذ بكل ما في هذه الكلمة من معنى، الكل فرح الكل مبتهج.. وأنا المحتفى بها..

هل هذه الأحاسيس دائمة؟.. أم عرض زائل؟.. ما أجمل الفرح!.. ما أجمل تحقيق الأحلام!.. هل سيتحقق حلمي كما أصبو؟ أم ماذا تخبئ في الأيام؟.. سأنجب طفلًا

جميلًا، سأضمه إلى صدري، سأرضعه حياتي سأعلمه تجاربي، سأعتني به ليصبح أفضل طفل في هذا العالم..

- سهى .. سهى .. أين أنت؟ .. أين الإفطار؟! ..

الصوت عال والنبرة تُشْعِر بالاستعباد والنظرات تثير الاشمئز از..

ــسهى.. أين الغداء؟.. أين العشاء؟.. أين ثيابي؟.. أين؟.. أين؟.. أين؟..

- كم أنت مهملة وكسولة!.. نفسي مشمئزة منك!.. ماذا أحببت بك؟.. كم أنا مغفل!.. زوجتي السابقة أجمل منك بالاف المرات، هاتٍ!.. أعطني مالًا أريد أن أشتري بعض الأشياء هاتٍ..هاتٍ!..

ـ هـ ل هذه الحياة هـ ي الزوجية التي كنت أحلم بها؟!.. هل هذا هو فارس أحلامي؟!.. هل تبخرت الكلمات الجميلة المنمقة المعسولة، التي كانت تتسلل إلى داخلي فتجعلني أسعد مخلوقة في هذا العالم؟..

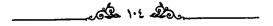
 ۱۰۳	₽	

أنا بحاجة إلى الكلمات الطيبة.. إلى الكلمات الرقيقة.. إلى دفء صدر أريح رأسي عليه من هموم سنواتي المثقلة بالحرمان..

تُقْتُ وأتوق إلى الحنان والأمان.. أحب أن أعيش كإنسانة، وأحترم كإنسانة لها شخصيتها وكيانها.. إنه يعاملني كشيء مكروه ممجوج، وأنا في أول أيامي الزوجية.. كيف سيعاملني إذن بعد مضي عشرين أو ثلاثين عامًا؟.. ماذا أعني أنا بالنسبة له؟.. أرى أنني لا أعني له شيئًا البتة!.. يُشعرني بأنني أتفه من أن يلتفت إلى.. أنا لاشيء.. أنا لاشيء.. وهل أنا فعلًا لاشيء..

آه.. أرفض هذه العنجهية، وهذا التكبر، وهذا الاستبداد، وهذه النظرة..

سمعت عن الحب، قرأت عنه كثيرًا.. سمعت عن حسن المعشر، سمعت عن الرجل، تعاملت معه كأب، وأخ، تعاملت معه كزميل في العمل.. أما هو فلم أجده ينتمي إلى فثة الرجال هذه أبدًا!.. إنه متبلّد الأحاسيس والمشاعر، صاحب كلمات بذيئة، تليق بشخصه المخادع، إنه عمثل بارع، أتقن دوره في



يام الخطبة، والآن آن له أن ينزل عن خشبة المسرح.. لقد انتهت المسرحية.. لقد دام عرضها شهرًا، أجل شهر واحد فقط..

- طلقني!.. طلقني!.. لا أستطيع التحمل!.. لا أستطيع الاستمرار.. طلقني!..



10- غل**يظ.. أم...؟!** وكان

دخل غرفة الانتظار لعيادة طبيب (أنف أذن حنجرة) رجل في العقد الخامس من عمره مع مرافق له، أنيق المظهر، مرسوم الهيئة رسبًا، مزهوًا كطاووس يرى ريشه لأول مرة.. الرأس مرفوع، والأنف شامخ معقوف كأنه منقار عقاب.. لم ير أحدًا من المنتظرين في الغرفة رغم اكتظاظها بعدد لابأس به من المرضى.. أشار للسكرتيرة بيد ممدودة، وأصبع كأنها في وضع التشهد تشير إلى جهة باب الدكتور..:

-أخبري الدكتور أن مدير ال... موجود في الخارج، وأنني في عجلة من أمري.. هيا بسرعة!..

رمقته السكرتيرة بعين ملؤها الاستهجان والحيرة، وتابعت حديثها مع امرأة معها طفلان جالسة تجاهها...

ـبيني وبينك، أنا ذهبت إلى ذلك المحل الذي تتكلمين عنه وأنه عامل رخصة، لكن كل المعروض موديله بطلان وكلها بضاعة قديمة..

ـ يعني بتنصحيني لا روح ولا عذب حالي؟.. دالگه ١٠٦ عگائيم

- _يوجد أفضل منه بألف مرة..
 - ـ أين؟..

الرجل يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، نظر إلى ساعته أكثر من خسس مرات خلال دقيقة واحدة.. كعب حذائه ينقر الأرض نقرًا ويصدر صوتًا كأنه صوت منقار نقار الخشب..

الرجل موجهًا كلامه للسكرتيرة مرة أخرى:

- _أدخلي.. لماذا لاتدخلين وتخبريه بقدومي!..
- لا تستطيع الدخول ياسيدي حتى يخرج المريض الموجود بالداخل..
 - _ولكني على عجلة من أمري، ولا أستطيع الانتظار!..

نظرت إليه السكرتيرة نظرة حائرة ولاذت بالصمت. حذاؤه ما زال يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، والأنف شامخ وكأنه شم لتوه رائحة قذرة.. أما العينان فتتحركان بين فضاء الغرفة وساعة اليد، وكأنها نواسان لساعة قديمة.. المرافق الواقف بجانب الباب الذي دخلا منه كأنه قد تعب من حركة مديره فبادره قائلًا:

_استرح یا سیدی ریثها یخرج المریض...

نظر المدير إليه نظرة من لم يسمع شيئًا، ثم عاد لينظر في ساعته..

الصغيران ملا الانتظار فراح أحدهما يعبث بالمجلات القديمة المرمية على الطاولة بفوضى ظاهرة.. أما الآخر فكان يتململ في حضن أمه ووجهه يوحي بأنه على وشك البكاء..

فتح باب الغرفة وخرج المريض من داخلها، انطلق المدير يريد الدخول، فصاح الصغير:

- _ماما !.. ماما !.. دورنا الآن..
 - ـ لا يا ماما دور عمو الآن..
- ـ لا يا ماما .. نحن جئنا قبله! . . لماذا يدخل قبلنا؟ . .

رمقه المدير شررًا ودخل غرفة الطبيب، فأسرع المرافق وأغلق الباب خلفه، ووقف أمام الباب كأنه خشب مسندة..

تبادل الموجودون في غرفة الانتظار النظرات فيها بينهم باستغراب، تنهد أحدهم ونفخ نفخة أصدرت صوتًا يشبه صوت بالون منفوخ أفلت من يدصبي، وهز آخر رأسه بأسى من غير أن ينبس ببنت شفة.. قطع الصمت السائد بكاء الطفل الذي مل الانتظار ومل جلوسه في حضن أمه..

أراد أن يتحرر من هذه الجلسة المملة الطويلة، ولكن أمه كانت تمنعه، فها كان منه إلا أن عبّر عن استيائه بالبكاء..

العيون ترقب باب غرفة الطبيب متى ستفتح، وتنظر إلى ذاك الواقف على بابها وكأنه السياف عند أبي جعفر المنصور..

أخيرًا.. فتح الباب وخرج الرجل بأنفٍ شامخ مرفوعٍ، بعد أن قام الطبيب بإصلاح خلل ما معين داخل هذا الأنف، وحذاءٍ ينقر الأرض نقرًا..

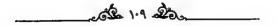
نظر الطفل إليه وقال بصوت خفيض:

- غليظ!.. غليظ!..

خرج الرجل من باب العيادة وهو يقول لمرافقه:

- اتصل بأبي ثاثر وقل له أن يوافيني إلى مقهى الوردة البيضاء، فإنني أتوق إلى لعب الورق معه لكي أملأ الفراغ في هذا اليوم..

همت المرأة وطفلاها بالدخول، حينذاك سمع الجميع صوت دحرجة على الدرج وصرخة ألم مدوية.. بعد ثوان عاد



الرجل ودخل العيادة بأنف مكسور مدمى من أثر السقطة وإحدى فردتي حذائه مكسورة الكعب.. وانطلق باتجاه غرفة الطبيب فصدم الطفل الذي كان يهم بالدخول، فصاح الطفل بأعلى صوته:

- غليظ!.. غليظ!..

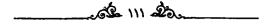


17- في المنْزِل الأول حصى

أبو محمد الحلاق مات وشبع موتًا، وكها يقول العوام: (عظامه أصبحت مكاحل) بل لعله أصبح رميهًا، وهو يسكن الآن في المنزل الأول من منازل الآخرة في قبر مهمل ضمن مقبرة روادها قليلون لكن قبورها تشترى بثمن غال تجعل الإنسان الفقير يفكر ألف مرة بثمن القبر قبل أن يعد العدة للرحيل إلى الآخرة.

أبو محمد هذا كان حلاقًا في حارة دمشقية قديمة، ومحبوبًا من أهل حيه، خفيف الظل، صاحب نكتة ودعابة، له قلب أبيض كبياض الياسمين الدمشقي، داخله يتربع طفل كبير لم تكتمل سلامة نطق الحروف عنده بعد. نفحه الدهر بالعديد من الزيجات، لعلها أربع زيجات أو خس زيجات، هو كان يقول: أربع فقط لأن الخامسة لا تحتسب لأنه لم يتم بها دخول.

البعض كان ينعته بضعف الشخصية، وأن الزوجة هي التي تسيطر عليه وتقوده، وآخرون قالوا لا إن قلبه الأبيض



هو الذي أورده موارد الزواج تلك، وأوقعه فريسة سهلة تتناوشه الزوجات، والبعض كان يحسده ويمصمص شفتيه متلمظًا باشتهاء قائلًا:

- الله ما أجمل التغيير.. حياته مثل ماء النهر تتجدد دائهًا وعلى كل ضرس لون يا سيدي..، لا حسد ولا ضيق عين بل من الاثنين..

رزقه الله العديد من الذكور والإناث، لكنه لم يكن في حقيقة الأمر مرتاحًا في حياته، ولا حتى مع أولاده. كان يعطي ويعطي دون انتظار لجزاء أو كلمة شكر، لكنه كثيرًا ما كان يُقابل بالجحود والنكران، ومع ذلك كان بقلبه الكبير يسامح الجميع ولا يحمل في صدره أي حقد أو ضغينة، وسرعان ما كان ينسى الإساءة ويتجاوزها، حتى إنه كان يقول لكل من نسائه عندما يطلقهن الواحدة تلو الأخرى:

- هذا حقكِ ومستحقك ونفقة طلاقك.

لم يكن ليبخس أيًا منهن حقها، بل كان يعطيها أكثر من حقها. أما أكبر أولاده، فقد كان مثالًا لا يشق له غبار

ي العقوق، بل لعل النمرود قد تتلمذ على يديه وأشرب من أفكاره، كان أبو محمد يعطي ويعطي دون حساب فيقابل من ابنه بالجحود والنكران، فكلما أعطى الأب أكثر كلما ازداد الابن رفسًا وركلًا كالبغل الشَّموس، كان أبو محمد كثيرًا ما يحدث نفسه قائلًا:

- الله يصلحه ويهديه.. إنه ما زال صغيرًا، غدًا عندما سيكبر ويأتيه الأولاد سيعرف قيمة الأب، وكم يحب الأب أولاده ويخاف عليهم ويتمنى أن يكونوا من أفاضل الناس وخيارهـم. آه.. ماذا أقـول؟ في الحقيقة إنه لم يعد صغيرًا، لقد جـاوز الرابعة و العشرين مـن عمره، وأنا عندما كنت في مثل سـنه كنت أعتبر نفسي رجلًا كامـل الرجولة أعرف ما لي وما على وأعامل الجميع معاملة حسنة فضلًا عن والدّيّ وأقاربي، فها باله يعاملني هذه المعاملة؟ . . بل لعله يجامل الغرباء معاملة أفضل من معاملته لي.. لعلي لم أحسن تربيته!!!.. مع أننى عملت ما في وسنعي، أم لعل طلاق أمه وانفصالي عنها قد أثر في نفسه؟ . . لست محللًا نفسيًا الأجزم، وكل ما أعرفه أن الولـد لا يطيق النظر إلى وجهي وكأني عدو لدود له، ونظراته

تجاهي تذكرني بنظرات ديك ألقي تجاه ديك آخر في حلبة صراع للديكة..

سيارة طويلة سوداء اللون، أعدت لدفن الموتى، ثُبت عليها مكبرات للصوت ينبعث منها صوت حادينعي أحد أفراد القطيع الإنساني:

- ترحموا على المرحوم محمد بن أبي محمد الحلاق، سامحوه يا أهل الديرة، سامحوه يا أهل المحلة، ليسمح عنا وعنكم الله.

تمشي السيارة بتؤدة في موكب مهيب، وأصوات الأقدام خلفها، كأنها أصوات حوافر قطيع من الغنم سائر إلى حتفه، الكل حاني للرأس مرتبد قناعًا على الوجه يوحي بأنه حزين وأنه قد اتعظ من الموت، وأنه عندما سيعود من الدفن سيكون كالملائكة لا يجني ولا يعتدي على أحد، ولا يغتصب حق أحد، بل سيعيد الحقوق لأصحابها، لن يغش ولن يخدع بعد الآن، فالدنيا فانية والقبر شيء غيف ومرعب، لكن هذه الأفكار على الأغلب سرعان ما تزول كفقاعة صابون عند الابتعاد قليلًا عن موقع الحدث. وهناك آخرون كان الواحد



نهم على العكس يفكر بأنه شخصيًا بمنأى عن الموت وبعيد عنه كل البعد، وأن المرحوم قد مات لأن به علة ومرضًا ، وأما هو فإنه سليم معافى قوي الجسم والبنيان، فلا داعٍ لأن يغازله الموت أو يضمه.

بين الحين والحين يصيح أحد أفراد القطيع السائر خلف الجنازة:

وحدوا الله!..

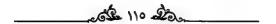
يردد القطيع بصوت يوحي للسامع بأن هذا الصوت تتقاطر منه دموع حرّى، بعد أن طلي بمسحة من الأسى والشجن والخشوع والخنوع والخضوع تفتّت نياط القلب:

- لا إله إلا الله!..

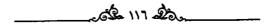
وتهتز الرؤوس موحية بالإيسان بالله، وتحملق العيون في اللاشيء والنظرات توهم بأنها تسبح في بحر من التفكر.

يقترب الموكب من خط النهاية، أصوات التكبير والتهليل تخترق قبر أبي محمد الحلاق تنتفض روحه ينادي على جاره أبي كامل:

- أبا كامل! هل تسمع؟ هناك زائر جديد قادم إلينا!..



- أجل الجميع سيأتون إلى هنا شاؤوا أم أبوا ..
- لكن المكان ضيق ولا يتسع لهذا العدد الضخم من الخلائق فلدينا أزمة سكن هنا!..
- سیتسع یا صاحبی، لأن أضخم واحد من هذه الخلائق لا یتعدی حجمه بضع حفنات من تراب..
- إذا كنت أستاذ فلسفة في الدنيا فهل ستهارس فلسفتك على الآن ونحن في الآخرة؟..
- لا يا صاحبي لا أمارس فلسفة خاصة وإنها هي حقيقة ثابتة، الجميع حفنات من تراب، هذا لا جدل فيه، أنت.. ألست في النهاية حفنة من تراب؟..
 - أجل!..
- ربا تذروك الرياح يومًا وتتناثر ذراتك في أماكن عديدة.. فتكون لَبِنَة في جدار، أو حبة شعير يأكلها حمار، أو كأسًا في يد غانية تحطمه متى تريد، أو قلمًا بيد فيلسوف، أو قد تكون نجفة معلقة في سقف عال ترنو إليها الأبصار، أو تكون أي شيء آخر أحجل أن أقوله..



عادت روح النكتة والدعابة إلى أبي محمد التي كان يتميز بها في حياته الدنيا فبادره قائلًا:

- ربا تأكل دودة بعض ذراتي فأكون بعرًا، فيسمدوا بي شجرة، فيأكل من ثمرها ملك أو بقرة فأعود (خد.) أو روت ألى .. ولا فرق على ما أظن إن كنت (خد.) ملك أو روث بقرة، وربا جُفف هذا الروث وأصبح وقودًا فأحترق في الدنيا قبل الآخرة، اللهم نجنا من نار جهنم!..

ضحـك الاثنان ضحكـة برزخية.. الصـوت القادم من مكبرات الصوت يصلهما بوضوح:

- ترحموا على المرحوم محمد بن أبي محمد الحلاق!..
- هل سمعت يا أبا كامل؟ هذا المتوفى هو ابني محمد، هل سمعت؟..
 - أجل، هذا ابنك البكر، أليس كذلك؟..
 - أجل.. أجل.. إنه هو!..

وقع أقدام القطيع فوق القبر مباشرة، بلاطة القبر تفتح يتسرب الضوء داخل القبر يصيح أبو محمد:

|--|

- النباشون ينبشون قبري، نُبشت قبورهما.. ألم يجدوا في أرض الله الواسعة مكانًا غير هذا المكان ليدفنوا به ميتهم؟!..

أبو كامل مستغربًا:

- ولكنه ابنك يا صاحبي ...

- ابنسي!.. في الحياة الدنيا كان لا يحب أن يراني، واليوم تريدني أن أحمل جثته فوق رفاتي إلى يوم القيامة؟..

أحد أفراد القطيع نزل إلى القبر، وأخذ يجمع عظام أبي محمد في ركن من أركان القبر.. صاح أبو محمد صياحًا جنونيًا برزحيًا لم يسمعه إلا أصحاب القبور:

- إيه.. إيه.. يا دابة!.. انتبه لقد خلطت أجزائي بعضها بعضها ببعض.. اترك جمجمتي، أتحسبها كرة يد؟.. أم بطيخة؟.. إيه.. يا حيوان!.. انتبه لقد دست بحذائك على عظام صدري، لقد حمل حذاؤك رميم عظامي.. إلى أين تأخذ رميمي؟.. آه يا رميمي!..

دقائق وأصبح محمد مسبجًى بجانب رفات والده وأعيد إغلاق البلاطة، وراح القطيع يستمع إلى التلقين، ويقرأ سورة

...... بعدها سمعت أصوات الأقدام وهي مدسرة وكأنها أصوات حوافر حُمُر مستنفرة، فرت من قَسْوَرة..

قال أبو محمد مرحبًا بابنه:

- أهلًا بك يا محمد في المنزل الأول...
 - كيف عرفتَ اسمي؟ . . من أنت؟
- أولًا هناك أجزاء من رفاتي تحت جثمانك الثقيل الشبيه بجذع شجرة مقطوع، فهلا تنحيت جانبًا لئلا تزعجني!..
- كيف لي أن أتحرك؟.. كأن ماهية الحركة قد سحبت مني!.. فأنا كها تقول كجذع شجرة ملقى على التراب، لكنك لم تقل لي من أنت..
 - أنا أبوك!..
 - أبيا!..

قالها باستغراب وحاول أن ينظر لأبيه نظرة ديك في حلبة صراع للديكة كما كان يفعل في حياته الدنيا، لكنه لم يستطع أن ينظر إليه ولو نظرة صوص ابن يومين. عند ذلك لاحظ ضعفه فآثر الصمت..

|--|--|

- أتذكر يا محمد كيف مت أنا؟.. أنا متأكد بأنك تعرف و تتذكر جيدًا بأنني قد مت باحتشاء في عضلة القلب، وهذه الذبحة حلت بي من جراء أفعالك!..
- أفعالي أنا!.. الموت نهاية كل الخلائق وهو الذي لا بد منه..
- أجل.. أعرف.. ولكنني كنت أحسن إليك كثيرًا ولقد ساعدتك كثيرًا كي تشق طريقك في الحياة وتبنى مستقبلك ولكنك كنت تهدر كل شيء وتبدده، وأصعب المواقف عندي كانت يوم طلبت منى بأن أستدين لك مبلغًا كبيرًا من المال من أجل إنشاء مشروع في الخارج ووعدتني يومها بأنك ستكون رجلًا وستعيد المبلغ إلى أصحابه في غضون عام.. واتصلت بك العديد من المرات من أجل التسديد وكنت في البداية تستمهلني وعندما ازداد إلحاحي عليك، قلت لي ببرود عيت: سدِّد عني .. أنا لا أريد أن أسدِّد .. وأنا حفاظًا على ماء وجهمي أمام من وثقوا بي بعت كل ما أملك وسـدُّدت الدين عوضًا عنك، فاسودت الحياة في عيني وركبني الهم وهذا ما أدى لإصابتي بالجلطة.

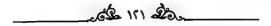
- أنا قصدت ألا أسدد الدين نكاية بك!..
 - لاذا؟..
 - لأنك طلقت أمى!..
- وهل أنا كنت مبسوطًا لطلاق أمك، لقد طلقتها رغبًا عني بعد أن استحالت الحياة بيننا، وأصبحت جحيبًا لا يطاق...
 - لكنك كنت ظالًا بطلاقك إياها!..
- أنا كنت ظالما؟!.. فلتأكلك دودة، وتطرحك بعرًا فيسمّدوا بك شجرة فتأكل منها بقرة و..

ضحكة برزخية انطلقت من أبي كامل عمت أرجاء البرزخ وأردف قائلًا:

- لقد استفدت من فلسفتي يا أبا محمد، والآن كفاكم عتابًا، فلقد حان وقت مجيء الملكين المكلفين بمحاسبة محمد..

لأول مرة ينظر محمد إلى والده بانكسار كمن يريد أن يبوح له بسر، فيبادره أبوه متسائلًا:

- ما بك؟..
- أريد أن أعترف لك بحقيقة..



- ما هي؟..

- الحقيقة أن أولادي قد عاملوني بنفس المعاملة التي عاملتك بها وأنا الآن نادم أشد الندم، فلتسامحني يا أبي!..

أبو كامل كمن يعلن ساعة الصفر:

- لقد جاء الملكان..

أبو محمد يرثي لحال ولده ويشفق عليه من الحساب:

- آه يا ولدي!.. كم يشق علي أن أحضر حسابك، فأنت فلذة كبدي الذي كان، فلتذروني الرياح بعيدًا عن هذا المكان، ولأكن ما أكون ولا أسمعك تتألم..

في ذلك اليوم هبت نسمات لطيفة على سطح الأرض، وبقي أبو محمد بجانب ابنه، وعلى الأغلب أنه قد حضر جلسة الحساب بكاملها لأنه لم يبرح مكانه وهو يسترحم الملكين بألا يعذبا ولده..



۱۷- قسارون کیسی

حمل قارون كل أمواله السائلة، وجميع دفاتر شيكاته، ونزل بها إلى السوق باحثًا، منقبًا، مفتشًا، محاولًا شراء ضحكة صافية نابعة من القلب، لكنه لم يستطع شراء هذه الضحكة، لأنه وجدها غالية الثمن، بل وجد أن جميع ممتلكاته لا تكفي لشرائها، ولا حتى لشراء بسمة صغيرة!..

قفل راجعًا.. كثيبًا.. ينوء تحت ثقل ما يحمل!..



۱۸- مدینت السلام کای

في زمن من الأزمان، بالضبط في الألفية الثالثة للميلاد، كان هناك اجتماع للجنة من أجل بلد تدعى مدينة السلام، هذه المدينة التي لم تنل من السلام إلا اسمه، لقدر ما عانت من ذغابر الأزمان من الويلات والحروب، فكم من مرة خبّت أرجل الخيل بدماء الآلاف من أبنائها، وكم من مرة احتلت، وكم من مرة تحررت، وفي نهايات الألفية الثانية اجتاحها اليهود، وعربد جنودهم بأحذيتهم الدنسة فوق ثرى مقدساتها، مع أنها تعتبر مدينة مقدسة بالنسبة للديانات الساوية الثلاث.

يوم اجتمعت اللجنة المؤلفة من العرب أصحاب الأرض والمسلمين وبعض المسيحيين، توافد الجميع إلى مقر اللجنة، وربطوا ركوباتهم بجانب باب قاعة الاجتماع، من سيارات فخمة مصفحة ضد الرصاص وخيل وهجن سريعة وحمير معدلة وراثيًا لتواكب ذلك العصر.. الحماسة بادية على وجوه أعضاء اللجنة وهم يفكرون بشكل جدي للوقوف في

 ١٢٤	<u> </u>

وجه عملية تهويد مدينة السلام هذه.. رئيس اللجنة مقطبًا ما بين حاجبيه، ليشعر الجميع بخطورة الوضع، حاول شد سرواله من على خصره باتجاه الأعلى، وحرك بيده عقدة ربطة عنقه باتجاه اليمين واليسار، وكأنه يقوم بعملية تحميه لصوته وجسمه، بعد ذلك سالت الكلمات من فيه:

_إخوت الأحبة بدايةً أرحب بكم وأشكر لكم حضوركم واهتهامكم.. فالوضع جِدُّ خطيرٍ.. وتجب معالجته بالشكل السليم قبل فوات الأوان، إنهم يهدمون البيوت ويمسحونها عن وجه الأرض مسحًا، ويهجّرون أهلها وإن أبوا قتلوهم، أشجار الزيتون تناديكم تستصر خكم.. إنهم يقتلعونها ويبنون المستوطنات عوضًا عنها! . . وأنا بصفتي رئيسًا لهذه اللجنة فقد أعددت من جهتي الدواء الناجع لمعالجة عملية التهويد هذه، فإنني وبكل تواضع قد أعددت خطبة عصهاء سوف تزلزل الأرض من تحت أقدامهم، و تسقط قلوبهم في أرجلهم، سألقيها في الوقت المناسب، والآن أحبتي الأعزاء سنتداول معًا آراءكم ومقترحاتكم، لنخلص معًا إلى أفضل الحلول، فليتفضل كل واحد منكم ويدلى بدلوه، فليتفضل الدلو

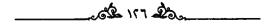


الأول!.. عفوًا!.. فليتفضل العضو الأول، ساد الهرج والمرج والمرج وامتلأت القاعة بالصخب والضجيج، فكل عضو بينهم كان هو الأول حسب رأيه، وله حق الكلام قبل غيره، اختلط الحابل بالنابل ولاحت بوادر شد الشعر وتهيئة القبضات لللكهات والأسنان للعض والأظافر للهبش والنبش، ولكن الله لطف لأنهم اتفقوا أخيرًا على أن يبدأ أصغرهم سنًا وبعده الأكبر فالأكبر:

- أنا رأيي لوقف التهويد، أن نطرد اليهود، أن نقاتلهم فالمدينة مدينتنا والأرض أرضنا ولن نتنازل عن شبر منها وهم غرباء محتلون أتوا إلينا من شتى أصقاع العالم، فليرجعوا إلى حيث كانوا!..

ما هذا الكلام؟.. هل تريد أن يقف الرأي العام ضدنا؟.. أين هي السياسة، أين هي الدبلوماسية؟!.. هل تريد أن يقولوا إننا إرهابيون، ومعادون للسامية، ما هذا الكلام إنه مرفوض جملة وتفصيلًا!..

_لنمسـك العصا من منتصفها، فنعطيهم نصف المدينة.. ونأخذ النصف الآخر!..



_أمعقول أن تتنازل عن نصف بيتك لأحد؟.. ما هذا الكلام؟!..

_أرى أن نتعايش معهم، ونعيش سوية بسلام في بلد السلام!..

_إن أردت أن تتعايش معهم على أرضك، فإنهم لن يقبلوا التعايش معك، بل هم يريدون أرضك بدونك!..

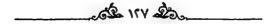
_أرى أن نتحد عربًا ومسلمين ومسيحيين ونقوم بإنتاج فيلم روائي طويل يعالج هذه المشكلة ويفضح أطهاعهم!..

_وأنا بصفتي مخرجًا تلفزيونيًا سأقوم بإخراج سهرة تلفزيونية تعالج هذا الموضوع بكل صدق وأمانة!..

ـ نرجو أن تكون هناك ترجمة فورية حتى يستطيع الجميع الفهم والمشاركة!..

- أنا برأيي أن نرفع هذا الموضوع برمته لهيشة الأمم المتحدة، فالمفروض أن يعالج هذا الموضوع عالميًا!..

_هِهُ!.. هِهُ!.. هيه!..



أحدهم فتح عينيه بعد أن أقلقته من منامه أصوات المُدلين بدلائهم، فتشاءب حتى بدا فمه كمغارة على بابا، ثم أدلى بدلوه:

- أنا جئت إلى هذا الاجتماع لأشارك من أجل وحدة الصف والكلمة، ولكن عدم المؤاخذة سمعت في بداية الجلسة كلمة تهويد عدم المؤاخذة؟!..

ـ بالدور ... بالدور ... يا جماعة كها اتفقنا !..

دوري ا.. دوري أنا ا.. أنا أرى أن أشارك وبكل ليونة بوصلة من الرقص الشرقي احتجاجًا على ما يقوم به هؤلاء اليهود.. وليرى العالم كله كيف أهز خصري من أجل هذه القضية !..

-إية!.. وهنزي يا نواعم خصرك الحرير وخلي الشعر الناعم مع الهوا يطير!..

ـ وأنا سأقيم دوريًا لكرة القدم، أسميه دوريَّ مدينة السلام!..

ـ أما أنا فسأرسم لوحات زيتية تخلد هذه المدينة!..



- الأفضل أن يكون الرسم بالفحم فقط ليتهاشي مع هذه المناسبة!..

ـ سأحيي ليلة غنائية تمتد حتى الصباح، مع أنني لا أجيد الغناء!..

_نعم |.. نعم |.. يجب أن يقف التهويد بأي شكل من الأشكال |..

مذا دليل على أن الأمة قد استفاقت من غفوتها!.. فلتهنأ أشجار الزيتون فقد جاء من ينقذها من الإبادة والفناء!..

ركل قوي على باب قاعة الاجتهاع، أفزع الجميع، فتحوا الباب فإذا بالحهار المربوط إلى جانب القاعة بعد أن سمع هكذا حوار، أدار ظهره للباب، وأمطره بوابل من الركلات الاحتجاجية بقائمتيه الخلفيتين.. وهو ينهق نهيقًا من المكن أنه عني به شيئًاما...

وهكذا يا سادتي خُتِم الاجتماع في ذلك الزمان بوقته وتاريخه..



19- مفار<u>ق</u>ت

000

عربة نقل القيامة تمشي الهويني تجوب شوارع المدينة، تجمع النفايات التي يخلفها هذا الإنسان المتحضر، هذا الإنسان الذي كلما زادت حضارته زادت مخلفاته..

أربعة من عمال التنظيفات يركبون على هذه العربة فوق أكداس القمامة التي تنبعث منها رائحة كريهة نفاذة، تجعل كل من يقترب منها يسد أنفه ويهرب مسرعًا.. أحد هؤلاء الأربعة كان يرفع صوته مغنيًا تاركًا لحنجرته العنان لتصدح بكلهات أغنية تقول:

(الحياة حلوة بس نفهمها.. حلوة.. حلوة.. الحياة حلوة.. حلوة..

وكان يشدِّد على كلمة (حلوة) حتى إن المستمع ليشعر بأنها نابعة من أعهاق قلبه، صاح أحدهم منتشيًا بها يسمع: - هيه!.. هيه!.. طيِّب!.. طيِّب!.. أعد!..أعد!..

قهقه الجميع فرحين وعلائم البشر والسعادة تفيض من قلوبهم على وجوههم فتكسبها ألقًا قلما تجده على وجوه

_

لناس في هذا العصر المعقد.. كانو ايفترشون أكداس القهامة وكأنهم يفترشون مرجًا أخضرَ جاد به ربيع نديّ.. كانوا لا يأبهون لمنظر القهامة المقزز، ولا يشمون رائحتها المنفرة بل كانوا يقطفون من اللحظة بهجتها وسعادتها، ويعيشون هذه السعادة ملء جلودهم، بل بكل ذرة من كيانهم المادي والمعنوي.. محاولين الإلقاء بشوك الحياة بعيدًا، بل ربها قد اعتادوا على هذا الشوك فصار الشوك يشاك من شوكهم..

شارة المرور يضيء ضوؤها الأحمر تقف العربة والصوت ما زال يلعلع والضحكات الندية راحت تروي بعبقها غليل الأثير الجاف الذي امتلأ صخبًا من أصوات هدير محركات السيارات، وتلوثًا من عوادمها..

سيارة فارهة (موديل ٢٠٠٧) غالية الثمن كاملة المواصفات التي تؤمن الرفاهية لراكبها، الزجاج العاكس لايبين عمن بداخلها، النوافذ مغلقة ومكيف الهواء ينفث هواءه البارد المنعش، النظارات السوداء تغطي نصف وجه صاحب السيارة الذي لم تطاله الشمس منذ أمد بعيد.. هذه

السيارة قد اضطرت للوقوف بجانب عربة القهامة بفعل الإشارة الضوثية..

صوت نزق داخل السيارة يتكلم على الهاتف الجوال:

- لماذا لم تخرج البضاعة من الجمارك؟!..

. –

- هذا الكلام لايفيدني.. إنني أخسر الملايين كل يوم من تحت رأسك، أكاد أجن.. إنك تدمرني.. أعصابي لم تعد تحتمل، تصرف بسرعة وإلا ستضطرني لاستعمال إجراءات لن ترضيك..

....-

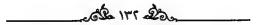
هاتف آخر:

- نعم.. نعم.. لا.. لا.. الواقع أنت محسوب على المهندسين وأنت لاتفقه شيئًا في هندسة الديكور..

. –

- أريد شيئًا مبتكرًا.. جديدًا.. أريد (فيلتي) أن يكون لا مثيل لها في هذا البلد..

. –



- أرجع الفيلاَّ على الهيكل العظمي أزل كافة الإكساءات والديكورات التي قمت بها..

. –

- أجل أعرف أنني سأخسر الملايين، هذا شيء يدعو للجنون، لا أحد يفهمني في هذا العالم، تصرف كما أقول لك.. مع السلامة!..

راح يكلم نفسه وكأنه يكلم أحدًا بجانبه:

- آه!.. ما أصعب هذه الحياة!.. لا يستطيع أحدنا أن ينعم بالهدوء وراحة البال ولو لساعات، الحياة كلها مشاكل ووجع قلب، على ما أظن أن الضغط الشرياني قد ارتفع عندي، فرأسي بدأ يؤلمني ولا أدري إن كان السكر هو الآخر قد ارتفع.. إيه ا.. الحياة كلها إزعاجات!.. ولا يوجد شيء يفرح القلب..

أضاء الضوء الأخضر.. فانطلقت السيارة الفارهة وكأنها النسمة ومكيف الهواء مازال ينفث الهواء البارد المنعش على وجمه السائق المقطب الجبين، تبعتها العربة ببطء وتثاقل ووجوه الأربعة الطافحة بالبشر والسعادة تلفحها أشعة

الشمس الذهبية فتترك عليها أثرًا من ذاك الذهب، والصوت ما زال يردِّد:

(الحياة حلوة بس نفهمها!..)

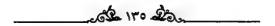


۲۰- **هارب من الحب** کهی

أيتها العزيزة:

لا أدري ماذا أكتب إليك.. هل أقول بأن حبك ما زال معششًا في أثناء قلبي؟.. أم أقول بأن البعد قد أنسانيك وبت طيفًا على هامش الذاكرة، هل أقول لك بأن حبك يندفع في دمي كموج هادر؟.. أم أقول لك بأن حبنا هذا الذي تتكلمين عنه، هو وهم؟ سراب خادع؟..

لا أدري يا عزيزتي ماذا يتوجب علي أن أكتب لك لأخرجك من دائرتي التي دخلتها رغبًا عني.. رغبًا عن أنفي، إذ وجدتك تقتحمين علي حياتي دون سابق إنذار، وتحقنيني بدم شاب، دم حار قد نسيت اندفاعه في عروقي منذ زمن طويل، بعد أن غطت الثلوج رأسي، وتسللت إلى عروقي.. قلت في إنك تذكرين اللقاء الأول لنا ضمن تلك المجموعة المتربعة على مكاتب أنيقة، ما زلت تذكرين اليوم والتاريخ والساعة وكأنه حدث تاريخي!..



ومنذ ذلك التاريخ وتلك الساعة، تفجر ينبوع دافق في قلبك، وبدأ عطاؤك الذي لا ينضب، فتحت لي قلبك على مصراعيه، وكلمتني عن نفسك الشيء الكثير، لم تخفي عني شاردة ولا واردة، كنت صريحة للغاية، تعبرين عن مشاعرك ببساطة أخذت بمجامع أحاسيسي، كلماتك البسيطة كانت ترسم فلسفة خاصة، تضفي على الحياة لونًا عميزًا..

يومها شدني إليك شعور جميل، أسميته صداقة، بل قلت لك عنه إنه أعمق من الصداقة، إنه أخوة، ولم ألاحظ تحسسك من هذه الكلمة، إلا بعد فترة من تعارفنا، إذ وجدتك تختلجين من تلك الكلمة وتنفرين منها، أخذني مد وجزر، تماوجت الأفكار في رأسي، فدفعت إلى لساني ألف سؤال وسؤال.

تجاهلتُ الإجابة، ورحتُ أعاملك كأخت أصغر مني، وأرسم لك درب نور، متجاهلًا ما كنتِ تفكرين به، وما تحملينه من أحاسيس، فكنت الشاطىء الذي تنتحر عليه وتتلاشى أمواج عواطفك، كنتِ يومها ثائرة عليّ لأنني أتجاهل ما تحسين به، ولا أبادلك الإحساس بالإحساس، بل كنتُ أتعمد أن أضع كلمة أختى دائيًا بين كلماتي إليك.. كنت

نتعضين، تثورين في داخلك، تحاولين أن تتكلمي، لكنك سرعان ما كنت تبتلعين كلماتك وتلقينها في جوفك كسيرة مهيضة الجناح.. وكنت ألحظ ذلك وأتجاهله، وأقول في نفسي الصداقة والأخوة ممكنة، ومن الممكن ألا نجعلها تأخذ بعدًا أكثر من ذلك.. وتعددت لقاءاتنا فتقاربت أفكارنا، وتماثلت اهتماماتنا، وراحت عيناك تدك جبل الصمود الذي أرعاه وأنميه داخلي، فكان زلزال عنيف، بعثر محتويات نفسي وضيع كلمة أختي أثناء حديثي إليك، فلمعت عيناك ببريق نصر شدني إليك أكثر وأكثر.. يومها تشجعت وسألتني:

- ما رأيك بالحب؟ ما تعريفك للحب؟..

أجبتك بكلمات ضبابية لا تروي غليل قلبك الظامىء، المشرئب لسماع سيمفونية عذبة عن الحب.. تجاهلت كلماتي ورحت تعزفين بكلماتك لحنًا جميلًا، حمل إلي آراءك في الحب، وكنت جاهدة تحاولين انتقاء أرق الكلمات، وألطف التعابير لتعرر في بها الحب، ولتشرحي معنى الحب.. راحت الكلمات تتفتح كبراعم على شفتيك، وترشقني بعبير الحب لأذوب في شذاه.. فقلت وقلت وأنا منصت، أقرأ تعبير وجهك، ألحظ

تورد وجنتيك، ألحظ تقطع نبرات صوتك. أسمع وجيب قلبك المضطرب.. يومها بالذات كنت أحاول أن أبدو كتلميذ يتلقى درسًا خاصًا من معلمته.. رحت تستفيضين في الشرح والتعليق، تغرفين من بحر الحب درره ولآلئه لتلقيها بين يدي، لتبهري بها ناظري، لكن ذلك التلميذ لم يكن متلقيًا فقط!.. وكم كانت مفاجأة لك حين قلت:

_أنا لا أؤمن بوجود هـذا الحب الذي تتكلمين عنه.. أو هو بالأحرى وهم خادع..

قلت والدهشة تعقد لسانك:

_كيف؟ .. كيف لا تؤمن بوجوده؟ ! . .

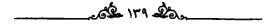
-إن ذلك الحب الذي تتكلمين عنه قد مات منذ زمن طويل ورم عظمه.. مات مع قيس وليلى، وروميو وجولييت، ومحوزين.. وأما ما نجده في الواقع اليوم، دعينا نسمه استلطافًا.. نسميه ضرورة، حاجة، غريزة، نسميه تجاذبًا بين طرفين غير متهاتلين.. أما أن نسميه حبّا.. فلا!.. لئلا نجني على الحب ونلبسه ألبسة مهرج في سيرك، ونلقي به في حلبة أيامنا هذه..

_ولكنني ... ولكنني ...

وانتحرت الكلمات على شفتيك قبل أن تحرك أي ذرة من ذرات الأثير.. كتبتٍ لي بعدها بقايا حروف، بقايا كلمات، لم تقوليها سابقًا.. قلت في نفسي هذا رماد النار التي أطفئت.. نقبت بين تلك الحروف، نقبت في ذلك الرماد، فوجدت وراء كل حرف جبلًا من جمر، يكوي، يحرق، ويتوهج.. كانت كل حرف تهمني من تحت الرماد، بتبلّد الإحساس، كانت تصرخ بي:

- ألا ترى تلك الماثلة أمامك، تناديك فاتحة ذراعيها لتضمك إلى صدرها؟!.. ألا ترى ذاك القلب الذي يتفجر لك عن أسمى عاطفة وأنبلها؟!.. ألا ترى تَيْنِك العينين اللتين تستغيثان بك لتروي ظمأهما؟!.. ألا ترى تينِك الشفتين اللتين ما برحتا ترتجفان من غير أن تستطيعا أن تنطقا بكلمة أحبك؟!.. ما بك؟!.. ألا تتحرك؟!..

وقفت يومها حائرًا.. هل هي تحبني فعلًا؟.. وأي نوع من الحب تكن؟.. وهل أنا أبادلها نفس المشاعر؟.. أم أنني أحمل مشاعر أخ وصديق؟..



دخلت إلى نفسي أستكشفها، أحاورها، أستبصر الأمر منها، وجدتها تبوح لي وبكل صراحة أن لا أخوة بينكما ولا صداقة.. بل هو حب.. استنكرت هذا منها، زجرتها، عنفتها، تشبثت برأيي أن هناك أخوة.. بل صداقة على الأقل.. لكنها صرخت وكأنها قاض في محكمة يدلي بحكمه الأخير:

- إنه حب مع العواطف السامية المؤبدة.. صدر الحكم.. رُفِعَتِ الجلسة!..

ارتميت في زنزانة الحب أعاني منه ما أعاني، أسائل نفسي كيف أبيح لنفسي أن تتوغل في غابة الحب بعد أن غطى الشيب رأسي، وسرى ثلج آذار في عروقي؟ قررت أن أخفي ما بنفسي، وألا أعترف أمامك بها أعاني، وإذا بكلهاتك تدك صرح صمودي، تعيد الدم الشاب إلى عروقي، ينفرج فمك عن كلمة أحبك.. ويكتبها قلمك عشرات المرات، أسطرًا متتالية، فها تمالك ت إلا أن جلست على كرسي الاعتراف، لأقول لك وأنا أيضًا أحبك.. طربت لهذا الاعتراف، وطربت أنا لطربك، انتشيت وانتشيت، عشنا في جو ملائكي، حلقنا أنا لطربك، انتشيت وانتشيت، عشنا في جو ملائكي، حلقنا

عاليًا عاليًا..، سمونا على مادتنا، وارتقينا سلالم السماء، فحلقت روحانا في سماء من الصفاء والنقاء والنور الإلهي..

عدت إلى الأرض أنتظرك، فانتظرت وانتظرت، وأنت تسبحين في جو عابق بالرومانسية، تغتسلين بعطر الحب وتنشفين بشمسه، تشربين عشقًا.. وتتغذين هيامًا.. وعندما أجبرتك أن تعودي إلى فلك الأرض لتري ذلك الرأس الذي اشتعل شيبًا، وذلك العمر الذي قد انقضى معظمه.. قلت لي يا صغيرتى بلا مبالاة:

ـ لايهم.. أحبك أنت.. أحبك كها أنت، أنت من رُسِمْتَ في خيالي.. وبك حلمت..

ساءلت نفسي ترى هل يجتمع الربيع مع الخريف في آن واحد؟.. هل يجتمع البرعم الناعم مع جذع شجرة ذي لحاء جاف متشقق يا ترى؟!..

ما أسهل أن نتكلَّم عن المتناقضات يا صغيرتي، ولكن ما أصعب أن نعيش هذه المتناقضات!.. وخوفًا عليك من الانجراف في تيار الغروب، وهروبًا بنفسي من السباحة عكس التيار، وهروبًا من غول المتناقضات، جهزت حقيبتي ورحلت عنك بعيدًا.. وشفتاي تتحرّكان الآن لتقولا لك:

- أنت لست أختي، ولست صديقتي، أنت حبيبتي.. أجل حبيبتي رغبًا عني.. ولقد هربت بعيدًا لأن شمسك شمس صباح وإشراق، وشمسي شمس مغيب وأفول، فبعد شمسك نور ونهار وحركة وحياة.. وبعد شمسي ظلام دامس وليل وسبات، فعيشي صباحك حبيبتي، فجهال الصباح بعصفورين غريدين شجيين وليس أحدهما أجش.. فالوداع ياحبيبتي!..



۲۱- وا معتصماه د.

000

الدماء.. الدماء.. الأطفال.. الشيوخ تستصرخ تنتحب تنادي بأعلى أصواتها:

- وامعتصهاه ... وامعتصهاه !..

هُدِّمَت المنازل فوق رؤوس أصحابها، ذُبِحَت الأطفال بشظايا العدوان وسال دم البراءة!..

ذُبِحت الطفولة ذبح الجال وذبحت البراءة!.. انهمرت الدموع من أعين الشيوخ وسالت على خدود مجعدة تحفر خطوطًا جديدة، هتكت الأعراض، حَثَتِ النساء على رؤوسهن التراب..وهن ينادين.. يصرخن:

ـ وامعتصهاه!.. وامعتصهاه!..

شوارع لبنان معبدة بالدماء، تلك الشوارع التي استبدلت فيها الورود بالدبابات والرصاص الإسرائيلي، فمكان كل ورده طلقة تزرع الموت وقنبلة تفتت أجساد الأبرياء إلى أشلاء، ومكان كل زهرة حربة تغرس في كل قلب نابض بالحب والحياة، وحل محل عبير الزهور وأريجها رائحة

البارود ودخان حقد الصهيونية وقذارتها.. هُدِرت الكرامة وضاعت القيم فحلت شريعة الغاب مكان شريعة القيم والخير فباتت قوى الشرتدمر.. وتخرب.. وتقتل.. وتستبيح الأعراض.. ولا ترحم طفلًا، ولا تشفق لدمعة كهل، لقد بُحَّتْ حناجر النساء وهي ما زالت تصيح وتصرخ:

- وامعتصماه!..

دماء الأطفال والأبرياء تنادي وتستغيث.. تنادي أصحاب الكرامة.. أصحاب النخوة والشهامة.. الدماء العربية المهدورة تنادي الضهائر العربية وتستغيث مستنجدة تسأل:

- هل هناك آذان تسمع؟.. هل هناك من منجد؟ هل هناك من مغيث؟ أين أنت أيها المعتصم؟!.. أين أنت؟!..



۲۲- **ارید حنان**

_أريد حنان..

شهيق.. بكاء لاهث.. دموع تنهمر كميزاب إثر مطر غزير.. أسىً يغضّن وجهها الطفولي البريء..

- _ أريد حنان .. لا أريد أن أذهب معك ..
 - _اصعدي يا حبيبتي!..

شلال من الدموع، أكتافها تعلو وتهبط، كلمات لاهثة متقطعة

- _ لن أصعد .. لا أريد الذهاب معك ..
 - _اصعدي..
 - ـ لن أصعد..

امرأتان ترتديان السواد حاولتا دفعها إلى باب الباص عدة مرات، عينا أم قد خالط جمالها حزن مبهم، ترقبان بتله ف.. قاومت بجنون، اندفعت إلى الوراء، تراجعت بقوة لايمكن أن تتمتع بها طفلة في مثل سنها الذي لا يتجاوز الثماني سنوات، كادت تطرح المرأتين أرضًا، أمسكتاها بقوة وعنف، دفعتها الأولى بقوة وصرامة، صاحت الأخرى:

- ـ اصعدي يا مجنونة!..
 - ـ لن أصعد!..

امرأة في الثلاثين من عمرها كانت قد سبقتها وصعدت سلم الباص، حاملة فوق كتفيها رأسًا قد شحب وجهه، وهربت دماؤه إلى المجهول، استعطفت بصوت رقيق:

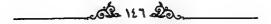
_اصعدي يا ابنتي .. هيا اصعدي فأنا أمك ! ..

بكاء حاد وحركات مجنونة وحنجرة كادت أوتارها أن تتقطع..

ـ لا أريد الذهاب معك !.. أريد حنان ..

عيون كثيرة ملأتها الدهشة وحب الاستطلاع، تطل من نوافذ السيارة ترقب ما يجري، تستعجل صعود الصغيرة، فقد طال الوقوف.. أحدهم نظر في ساعة يده أكثر من ثلاث مرات، وآخر بدين الجثة كان يغط في نوم عميق، فتح عينيه مستغربًا طول الوقوف، وآخر صاح محتدًا موجهًا كلامه للسائق:

- احترقنا.. الدنيا حر.. إلى متى هذا الانتظار.. هيا تحرك!..



_انتظر.. لحظة يا أخ ريثها تصعد الصغيرة..

ازدادت حدة العراك والتدافع أمام باب الباص، وأخيرًا انتصرت المرأتان اللتان ترتديان السواد، فأصعدتا الصغيرة إلى الباص وبقيتا واقفتين على أرض الشارع.. أمسكتها أمها بلطف وجذبتها إليها برفق، عويل الصغيرة يتعالى ويتعالى، محاولة عدة مرات القفز من الباب إلى أرض الشارع.. صاح أحد الركاب بذعر:

_أغلق الباب بسرعة!..

أغلق الباب ببطء وكأنه باب سجن الباستيل، وعيون الصغيرة ترقبه بهلم من خلال الدموع.. سارت السيارة وصوت الصغيرة يقرع الآذان:

ـ أريد حنان.. لا أريد أن أذهب معك.. أريد حنان..

قالت الأم مرتبكة من وقع سيل العيون المتفحصة حولها وكأنها سياط عذاب تجلد جسدها الذي أحست وكأنها بدأت تفقد السيطرة عليه:

ـ لماذا لا تريدين الذهاب معي فأنا أمك ... هل هناك بنت لا تحب الذهاب مع أمها ؟.. فأنا أ.. ن..

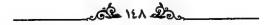


وماتت الكلمات على شفتيها ولم تعد ترى عيون الركاب التي تحملق بها.. ولم تعد تسمع صوت المحرك المزعج، ولا حتى صوت صراخ ابنتها وبكائها.. انطرحت على الأرض بين أرجل الركاب تتكلب في رأسها إغهاءة دنيئة.. تعالت الصيحات:

- _احملوها..
- _أجلسوها على كرسي..
- ماء!.. ماء!.. أيها السائق هل لديك ماء؟..
 - ـ انقلوها إلى المشفى..

عويل البنت ما زال يتعالى وصراخها يصم الآذان.. وعيناها لم تلتفت ولو للحظة نحو الأم المسجاة بين الأرجل وكانها دمية مهملة.. تكرهها لا ترغب فيها لا من قريب ولا من بعيد.. لقد كانت تتطلع إلى الخلف إلى حيث تركت حنان، صائحة أريد حنان أنزلوني أريد حنان..

أخلى أحد الجالسين مقعده، تشابكت بعض الأيدي فحُملت الأم وإغهاءتها إلى ذلك المقعد، تركزت العيون بحدة على عينيها اللتين ضاعتا في الأحداق ولم يبق فيهها أي مسحة



من جمال.. حتى إن الرجل البدين قد أزعجته تلك الضوضاء، ففتح عينيه ببرود ليتسلل بها إلى ما يجري حوله..

صاح رجل أشيب:

_ماء!.. ماء!..

تناول من يد السائق وعاء قذرًا وراح يسكب منه الماء على وجهها ويدعك به وجنتيها وجبهتها. إحدى النساء الراكبات على ما يبدو لم تستسخ أن يدعك رجل وجه امرأة وأمام كل تلك العيون، فقامت من مقعدها ودافعت الوقوف حتى وصلت واستلمت تلك المهمة عن ذاك الرجل الأشيب، شم راحت تصفعها صفعات متتالية على وجهها محاولة أن تخرجها من إغهائتها.

بكاء الصبية مازال مسموعًا و دموعها مازالت تنهمر و عيناها تنظران بعيدًا عن أمها بقلق بالغ..

صوت المحرك مازال يهدر بشراسة، يطغى على همهات الركاب و صخبهم، والطريق تنطوي تحت العجلات.. وخوف الصغيرة يزداد و يزداد..

بعدأن شبعت الأم من الصفعات، وبعدأن أخذت نصف همام بهاء بارد فتحت عينيها ببطء شديد وكأن سحابة سوداء كانت ترزح فوقها.. وعندما اقتحم الضوء عينيها انتبهت إلى ما هي عليه راحت تصلح من جلستها على المقعد، وتلملم أطراف ثوبها باستحياء بالغ وهي تنبش في ذاكرتها: يا الله ماذا حصل لي؟!.. أذكر أنني كنت واقفة من الذي أجلسني على هذا الكرسي؟!.. و كيف؟!.. وما هذا الماء الذي يغرق وجهي و ثوبي؟!..

نظرت إلى المرأة التي كانت تقف تجاهها مبتلة اليدين وهي تمرر إحمدي يديها على جبهتها منحمدرة إلى وجنتيها فجيدها وسألتها:

ـ ماذا حصل لي؟..

-إغهاءة بسيطة لاشيء يذكر.. أريحي رأسك على مسند المقعد.. اشربي قليلًا من الماء.. الصغيرة كانت قد تعبت من البكاء فراحت تفرك عينيها بظاهر قبضة يديها وهي ترتجف و تشهق بعصبية، رمقتها الأم بنظرة قد انطمست معالمها

وعادت فأسندت رأسها المنهك إلى كرسيها وتركته نهرًا لشريط ذكريات عمره تسع سنوات:

أحببته يومها بكل كياني.. كان شابًا وسيهًا ذا شعر أشقر ناعم وعينين فيها خضرة الربيع وقامة مربوعة لا تحمل سمنًا ولانحافة، بهي الطلعة خجولًا كعذراء.. يوم قال لي: أحبك!.. احمر وجهه وتقطعت كلهاته وكأنه ينتشل كل حرف من تلك الكلهات من مكان ما من جسده، أحسست يومها بدفء الكلهات، أحسست بالربيع يسري في عروقي، أحسست وكأن العالم أصبح ملكي، كنت أحس بزهو كبير وأنا أتكلم عن حبي له، وددت لو أن العالم كله يعرف حبنا هذا، ويعيشه معنا.. وينعم بدفئه.

زواجنا.. زواجنا.. ليته لم يتم !.. هل أطفأ الزواج شعلة الحب؟.. هل بدد كل تلك الروعة التي كنا نحسها ونعيشها كحبيبين؟.. لا!.. لا أظن ذلك.. فلقد عشنا سنتين كأجمل ما يكون، نعمنا بدفء الحياة الزوجية، وأثمر ذلك الدفء ابنتنا ناهد..

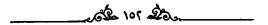


هدير المحرك ما زال يشز كنحلة احترق جناحها، نظرت إلى ابنتها فوجدتها واجمة وكأنها غارقة في بحر من الهم والقلق، جالت بناظريها على الركاب، مستطلعة فيها إذا كانت العيون ما تزال ترقبها، رأت أن الكل مشغول عنها إلا بعض العيون الفضولية التي كانت تحاول أن تتسلل إلى مخها لتقرأ حروف قصتها..

أعادت رأسها إلى مسند كرسيها وأغمضت عينيها لتتابع لنفسها قصة حزنها بعيدًا عن العيون الفضولية..

أذكر أن أمي قالت لي إن الرجل عندما يجد أي نقص عاطفي داخل بيته، فإنه سوف يفتش عنه خارجه، فعليك أن تملئي عليه حياته.. وأكدت جارتنا لي هذا الكلام قائلة:

- ـ هل سألت نفسك لماذا يسهر زوجك كل يوم إلى ما بعد منتصف الليل خارج البيت؟
 - ـ لا!.. ولكنني أعرف أنه تغير كثيرًا منذ أنجبت ناهد..
 - _ إن اهتهامك بناهد يأخذ أكثر وقتك وتنسين زوجك..
- لكن الصغيرة بحاجة إلى الاهتمام أكثر مما هو بحاجة إليه..



- كلاهما بحاجة إلى الاهتهام، اسمعي نصيحتي يا سهير إذا لم تهتمي بزوجك الاهتهام اللازم فستجدينه يومًا خارج قفصك يغرد خارج سربك..

ازداد سهره خارج البيت، وأصبح شجارنا يوميًا كفرض الصلاة له مواعيد وطقوس، حاولت الاهتهام به أكثر، حاولت النفخ على جذوة حبنا كي تتوهج كسابق عهدها، لكنني شعرت من معاملته أن الجذوة قد خبت وتحول معظمها إلى رماد..

سمعت أن له علاقة بامرأة أخرى!.. طار صوابي يومها، تمنيت أن أغرز أظافري في وجهه، أن أقتلع شعره الأشقر بأصابعي، تمنيت أن أبصق في وجهه.. أهكذا وبكل بساطة يذهب إلى امرأة أخرى!.. أين حبنا؟.. ماذا فعل بذلك الرباط المقدس الذي يربطه بي؟.. أألقاه في سلة مهملات؟.. أم باعه في سوق النخاسة لانرأة عاهرة؟!.. لقد باع ذلك الرباط وباع حبنا وباعني أيضًا بورقة طلاق قبل أن أسمع بأنه قد تزوج من تلك العاهرة، لست وحدي التي أقول عنها (عاهرة) بل كل من يعرفها قال عنها ذلك..

	<u> </u>
--	----------

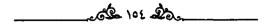
هنت عليه وهانت أيضًا فلذة كبده ناهد.. أيستبدلنا نحن الاثنتين بتلك ال...؟..

يوم تركت له ناهد في البيت وعمرها أقل من سنة وخرجت، كنت أحاول أن أضعه في مأزق، أضعه أمام ابنته التي تحتاج إلى من يرضعها ويعتني بها ويربيها.. كنت أريد عذابه، كنت أريده أن يتراجع عن خطوته الرعناء تلك.. لكنه وجد للأمر حلا وبمنتهى السهولة، فقد أرسل ناهدًا إلى أخته حنان التي تعهدت له بتربيتها بعد أن يشست من إعادته إلى.. وعاش مع تلك الد. التي رفضت منذ البداية فكرة وجود ناهد معها في بيت واحد..

انتقامًا منه ولكرامتي ومن ال... تزوجت مباشرة من أول خاطب تقدم لي..

وقف الباص نزل بعض الركاب وصعد آخرون وقلّت العيون التي كانت ترقبها، والرجل البدين كان قد فتح عينيه من غفوته ليجد نفسه قد فاته أن ينزل في المحطة التي يريدها، فصاح وكأنه آت من عالم آخر:

_أنزلني ا.. أنزلني هنا ا..



رد السائق عليه بخشونة:

انتظر حتى نصل إلى المحطة القادمة، لا أستطيع الوقوف هنا!..

نظرت إلى الرجل البدين وراودتها فكرة بلهاء:

إذا كان زوجي السابق ذاك الرشيق النحيل يحمل قلبين في صدره - لقد أحبني وأحب تلك ال... - فكم قلبًا يحمل هذا البدين في صدره؟ .. لابد أنه يحمل خسًا أو ستًا على الأقل..

نهضت الصغيرة وحاولت النُّزول من الباص لدى وقوفه في المحطة، فأمسكت أمها بيدها وجذبتها إليها:

- _إلى أين أنت ذاهبة؟..
- _أريد أن أرجع إلى حنان!..
- _اجلسي ياحبيبتي.. استريحي، ستزورين عندي أسبوعًا فقط ثم تعودين ثانية إلى حنان..

نظرت الصغيرة إلى أمها نظرة ريبة وشك، ملأى بالحقد والكراهية.. أحست الأم بتلك النظرة وكأنها تنفذ إلى أعماقها صارخة:

	100 200
--	---------

القد ضعت أنا بينك وبين أبي، لقد تزوج ونسيني وأنت كذلك.. فأنا يتيمة الأبوين، وأنتها ماتزالان على وجه الأرض.. ماذنبي أعيش محرومة من الأب والأم؟!..

وقطع شرودها صوت ابنتها يناديها بقوة:

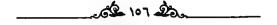
_قلت لك أريد أن أرجع إلى حنان!..

يا حبيبي !.. اشتقت إليك كثيرًا وأريدك أن تقضي معي هذا الأسبوع فقط، وسأشتري لك كل ما تحبينه و تطلبينه !..

_أنا لا أريد منك شيئًا أنا أريد منك حنان فقط.. أتفهمين أريد حنان فقط؟!..

قالت الصغيرة ذلك والغضب يفور من عينيها كتنور، قالت الأم في نفسها وهي تعيد رأسها إلى مسند كرسيها:

لنني لم أرض اصطحابها معي الأنني لم أرض اصطحابها معي وتربيتها يوم تركت أباها، لقد شعرت بحقدها يزداد يومًا بعد يوم، وسنة بعد سنة، عندما كنت أزورها في بيت عمتها حنان كل شهر أو شهرين مرة..



توقف الباص في محطته الأخيرة، أمسكت الأم يد ابنتها ونزلتا، ومشت تجرها من يدها والصغيرة تميل بجسدها إلى الخلف متراجعة وكأنها مسوقة إلى حبل مشنقة، وهي تصيح بأعلى صوتها:

_أريد حنان!.. أريد حنان!..



۲۳- الأحلام المسروقة كال

ارتعد جسده وكأن تيارًا كهربائيًا سرى داخله، فتح جفنيه فبدت عيناه ككرتين تريدان الانطلاق، لكن تحجر نظراته قد منعها، حاولت الشفتان أن تلفظ أحرفًا لكن هول المفاجأة لجمها، فتهدلت الشفة السفلى وانفغر الفم.. أسرعت اليدان تنقبان.. تبحثان بعصبية بالغة تحت الفراش.. تقذفان بأشياء بعيدًا، تبعثر أشياء أخرى، ضربات قلبه تسارعت حتى خيل إليه أنه يسمعها تدق كطبول الحرب.. الدم هرب من وجهه وأطرافه، فطرح الخريف عليها وشاحه الأصفر..

اليدان ما زالتا تبحثان تبعثران بعصبية بالغة، وبعد يأس قاتل توقفتا عن الحركة، وكأن الكهرباء قد انقطعت عنها، تراخى الجسد كله وانطرح فوق الفراش الذي كان يخبىء تحته أحلامًا كثيرة.. يسقط كعصفور طائر رمي بسهم من صياد ماهر، يتسربل بأفكاره المشوشة، يغتسل في خمام الجنون، يموء كقطة فقدت صغارها، يموء بانكسار..

ـ لقد سرقت أحلامي.. آه أحلامي سرقت..

لحظات.. وانتصب التحدي في عينيه جبل غضب، ينتفض.. ينظر بعيني حدأة إلى كل من حوله، يثور ألم السهم في أحشائه.. يزأر كلبوة فقدت صغارها..

_أنتم السارقون.. أجل أنتم السارقون.. ومن غيركم؟.. أعيدوا ما سرقتم، كلكم تعرفون أن تحت فراشي هذا أخبىء كل أحلامي.. من أخذها منكم؟..

ينصب عليه سيل من النظرات تقترب منه أجساد تستطلع أمره وعلى الوجوه رسمت الدهشة و الاستفهام:

_ماذا سرق منك يا..

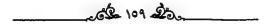
لا يجيب.. صوت آخر يرد ساخرًا:

_يقول أحلامه و هل الأحلام تسرق؟..

ـ لا بدأن هناك خللًا في برج القيادة عنده..

ـ دعونا نفهم.. قل ماذا سرق منك؟..

نظراته رمح فولاذي يعمله في وجوه الملتفين حوله، ينقب به عن بذرة قلق زرعها ذلك العمل المشين، يتفرس في الوجوه يرقب حركات العيون، يهجئ الأفكار.. يأس قاتل، إنه لم يستطع قراءة شيء.. يعرك عينيه بظاهر قبضتي يديه،



يشحذ بصره لينفذ داخل عظام جماجم الرؤوس المحيطة به ليستطيع القراءة بوضوح، يسبح عبر تلافيف الأدمغة، يغوص في أثنائها، يحفر في أوديتها منقبًا.. يضيع في متاهاتها.. وعندما يقترب من واد سحيق مظلم، يعرف أن بحثه بات بلا طائل، يطفو على السطح كدلفين شبه ميت.. مستجديًا بارقة أمل في الحياة..

- من المؤكد أن واحدًا منكم هو الذي لعب هذه اللعبة.. إنها مزحة غليظة، على كلَّ أرجو منه أن ينهي هذه اللعبة السمجة، ويعيد إلى ما سرق..

-أوه كسم أنست عمل!.. قسل ماذا سرق منك كفساك تلاعبًا بالألفاظ؟..

ـ تسألون ماذا سرق مني وبينكم العارف بمصيبتي، ليتكلم هو ويشرح لكم، فهو يعرف ما أخذ..

-إن لم تتكلم تركناك وخرجنا من هذه الغرفة، ولتنطح رأسك بحيطانها الأربعة..

- كيف لا أتكلم وأنا المجروح.. كيف لا أشكو وأنا المصاب.. يا أصدقاء غربتي، يا من تقاسمت معكم آلام

البربة والبعد عن الوطن والأهل، يا من تقاسمت معكم رغيف التعب والعرق.. يا من عاش معي في هذه الغرفة التي ضمت أجسادنا.. أرواحنا.. ذكرياتنا.. أحلامنا.. وأشواقنا.. كل مناكان ينطلق من خريف هذه الغرفة إلى ربيع يبنيه بيديه في بلده.. في هذه الغرفة يا رفاق الغربة بنينا جبل الأحلام لبنة لبنة.. اليوم في هذه الغرفة قتلت الصداقة، وتهدم جبل الأحلام!.. اليوم سرقت أربع سنوات من عمري، سرقت زنابق أحلامي واجتث كؤوسها منجل حاد.. في هذه الغرفة التمي حوت أرواحنا المطحونة برحى الغربة نمت روح ماردة خبيثة، روح غول شرير، أكلتني اليوم وستاكلكم غدًا.. هذه الروح دفعت بصاحبها إلى أن تمتديده إلى تحت فراشي هذا وتسرق تعب أربع سنوات .. أجل رواتب أربع سنوات كاملة، ادخرتها هنا تحت هذا الفراش، وكلى أمل أنني بهذا المبلغ أستطيع أن أزيح ولو بعض لبنات جدار الفقر العريض الـذي يـرزح فوق صـدر عائلتي.. عائلتي تلـك التي تحلم بعودتي وأزهار المني والربيع بيدي.. آه وأولادي.. أولادي الذين حرمتهم من لعب طفولتهم من أجل بناء غد أفضل لهم.. لقد ضاع الآن كل شيء، بل ذبح كل شيء، حتى كبش

الصداقة والعرق الواحد والألم الواحد والأحلام الواحدة، ذبحت من الوريد إلى الوريد.. أجل لقد ذبح الإنسان في غرفتنا هذه وسقط على أرض الغربة ناضحًا دمه، وعيونكم الفولاذية تنظر ببلاهة كبلاهة دب قطبي.. آه.. ماذا أقول لهم هناك عندما أعود؟ .. أأقول لهم إنني عدت إليكم لأبنى لبنة جديدة في جدار الفقر؟ [.. أم أقول لهم لقد عدت إليكم لأشارككم الحرمان والشقاء؟!.. أم أنوح وأقول لهم لقد سرقت وسرق من عمري وعمركم سنوات ثم رميت في مزبلة الزمن؟ ! . . أم أقول لكم إنني كنت في هذه الغربة كحمل وديع حمل من الشقاء أكثر مما يستطيع ثم أكلمه ذئب يدعى أنه صديق. هاأنذا أعود إليكم وقد كبرت وكبرتم سنوات، هل أقول إنني أمضيت هذه السنوات أعمل على رفع صرح الفقر عاليًا.. هكذا تريدونني أن أقول؟!..كيف لي أن أقول ذلك؟.. والآمال المعقودة تشر ثب أعناقها، والأحلام أشجار باسقة تناطح السحاب. آه!.. كيف لي أن أجز الأعناق وأقطع جذور الأشجار؟!.. كيف لي؟!..

|--|--|

انحنى على فراشه يمشطه بنظراته وكأنه غير مصدق لما حدث، ترقرقت دمعة في مآقيه، حاول أن يداريها، لكنها فضحته عندما التقت عيناه بتلك العيون المحيطة به والدهشة تسري في نظراتها، ترسم ألف معنى ومعنى..

نظر إلى الأفواه فكانت تنفتح وتنغلق وكأنها تجتر اللاشيء..

ضاق صدره من هواء الغرفة وشعر بأنه ثقيل فاسد، فخرج مسرعًا ناظرًا إلى الأفق البعيد، محاولًا استنشاق هواء أنظف..



٢٤- الأمر

(أستأذن غوركي في استعارة العنوان) الكاتب

0=0

انطلق صوت من داخل الغرفة:

_أحمد!.. أحمد إ.. لاتدخلوا غرفة الضيوف، ادخلوا إلى هنا يا أمى.. الدنيا برد.. تعالوا.. تعالوا..

الجبال المطلة على (دروشة) لبست ثوبًا ثلجيًا أبيض، والشمس هجعت خلف الغيوم البيض، التي مازالت تبشر بهطل ثلجي غزير، البرد قارس، والنسمات تلسع الجلد لسع السياط.. والأرض موحلة، والحذاء يحمل أكثر من وزنه طينًا.. نبات الشيح المزروع في حديقة البيت وشجيرات الورد التي تخلت عن أوراقها انكفأت على أنفسها وكمنت خوفًا من الثلج وغفت بانتظار الربيع..

الصمت يلف الجو بعباءته، وهدوء يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة، خرق هذا الصمت خوار بقرة، ملَّت على ما يبدو المكوث في الحظيرة، وتاقت إلى المرعى الفسيح..

|--|--|

و لجنا الغرفة، فلفحني دفئان: دفء الغرفة، ودفء الاستقبال، فطغى دفء الاستقبال على دفء الغرفة. امرأة في بداية العقد السادس من عمرها هبت واقفة هاشة باشة مرحبة بي فأنزلتني من الغرفة خير منزل، ونثرت العديد من الوسائد كي أستريح في جلستي، وكلهات الترحيب تنهمر بسخاء معبرة عن نفس طيبة، صافية، نقية، بيضاء كبياض الثلوج، التي تغطي قمم الجبال في ذلك اليوم.. كانت الكلهات تنطلق من فيها بسلاسة وعفوية كجدول يسير الهويني، ليروي كل ما يمر به فيغذيه وينميه..

ما أغلى من الولد إلا ولد الولد..

قالت وهي تشير إلى طفلين صغيرين يعبثان بكل ما تصل إليه أيديها، ويتحركان حركة دؤوبة، لا ملل فيها ولا كلل..

أشرت إلى الطفلين:

_ أولاد ابنك؟.. يا خالة..

ـ لا.. أولاد ابنتي.. تتركهـم عندي كل يوم وتذهب إلى وظيفتها، إنها تدّرس في القرية المجاورة..

_

_لكن.. أليس صعبًا عليها أن تجمع بين عب البيت وعبء العمل، خاصة وأن عندها أطفالًا صغارًا؟!..

تبسمت ابتسامة حملت في طياتها كل معاني الطيبة والمسؤولية وأردفت قائلة:

- الحياة صعبة يا بني، ومن الواجب أن يتعاون الزوجان لتأمين متطلبات حياتهم وحياة أطفالهم.. وخاصة في هذه الأيام.. كل شيء أصبح ضروريًّا، فما كنا نسميه كماليات أصبح اليوم من الضروريات.. فالبراد والغسالة والتلفزيون والسيارة وأشياء أخرى كثيرة جدًا لم يعد يستطع الجيل الجديد الاستغناء عنها أبدًا، لذلك ترى الجميع يركضون ويلهثون في سبيل تأمين هذه الأشياء التي كنا لا نعرفها سابقًا، حتى البيت المستقل للزوج والزوجة يقولون إنه أصبح من الضروريات فلا يرضى الابن أن يتزوج في بيت أهله، وحتى أهل العروس لا يرضون ذلك.. وهات يا ركض!.. و هات يا لهاث!.. فقد ينقضي العمر ولا يستطيع الواحد منهم أن يؤمن معظم هذه الأشياء..

|--|

لكن هذه الكماليات التي أصبحت من الضروريات كما تقولين، أراحت الإنسان وجعلته منعمًا مرفهًا، ووفرت عليه الكثير من الجهد والتعب..

-أراحت الجسم.. وأتعبت الجيب والفكر..، كنا بلا هذه الكماليات نعيش عيشة بسيطة مليئة بالمحبة وراحة البال، وكلنا بعضنا مثل بعضي.. ووضعُنا المادي قريب بعضه من بعضي، فلا نشعر بأن هناك تسابقًا على هذه الأشياء، أما جيل اليوم فهو جيل مسكين وقع في فخ السباق ولا يعرف كيف يخرج منه..

ـ الحياة يا خالة كلها ركض وكفاح هكذا خلقها الله..

بكاء أحد الولدين خارج الغرفة جعلها تركض إليه مذعورة، ضحك أحمد وقال باعتزاز:

-هـذه هي أمي.. إنها تحب كل الناس وقلبها يتسع للجميع، إنها تفني حياتها من أجلنا جهيعًا بلا كلل ولا ملل إنها تعطي وتعطي دائيًا.. ولا تنتظر منا جزاءً ولا شكورًا.. تصور أنها تقوم بأعباء المنزل من طبخ وغسل وتنظيف بمفردها،

بالإضافة إلى العمل المجهد في الأرض.. كما أنها تقوم بكل بالاعتناء بالدواجن وحلب البقرة.. بصراحة إنها تقوم بكل هذه الأعمال بلا أدنى تذمر أو تأفف و ترفض أن نساعدها بأي عمل من هذه الأعمال و تقول لنا: اهتموا بشؤونكم وأعمالكم أريدكم أن تكونوا من المتفوقين بكل شيء.. قد تستغرب أن لديها أيضًا الوقت الكافي لكي تهتم بكل صغيرة وكبيرة في حياتنا و تسدي إلينا النصح والتوجيه!..

فتح الباب ودخلت الأم وهي تحمل أحد الصغيرين وهو يبكي لتزحلقه بالطين وتوسيخ ثيابه.. صوت الأم يواسى الصغير:

ـ لا تبك يا حبيبي.. سأبدل لك ثيابك، اجلس في الغرفة والعب.. ولا تخرج لأن الأرض في الخارج طين بطين!..

بدلت ثياب الطفل، ثم حملت بعض حبات البطاطا وقالت:

ـعـن إذنكم أريد تحضير طعام الغـذاء، اهتم بضيفك يا أحمد ولا تقصر في ضيافته!..

|--|

تبسم أحمد وقال:

-أجل!.. هذه هي أمي يا صاحبي.. بقلبها الكبير وبساطتها.. إنها كتاب مفتوح تنهلُ من معينه الصافي متى تشاء..

ارتسمت على وجهي علامات الإعجاب ووجدتني أنمتم:

_بارك الله بهذه الأم !..

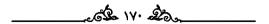


٢٥- المبسرد

000

- ـ برد شدید یا حاج!..
- _أجل.. البرد شديد يا حاجة!..
 - ـ لم أعد أستطيع التحمل!..
 - ـ اصبري يا حاجة!..
- ـ وكيف يستطيع الإنسان أن يحتمل البرد؟!..
- _الحق معك قد يستطيع الإنسان احتمال الجوع، لكنه لا يستطيع احتمال البرد..
- _سأجلب حرام الصوف، ونضعه فوقنا عله يخفف من وطأة هذا البرد القارس..
- حرام الصوف؟!.. وهل بقي به صوف؟!.. لقد جز الزمن صوفه!..
 - ـشيء أفضل من لاشيء، غطي نفسك جيدًا..

أوصالهما ترتجف، وكأنها تحت تأثير تيار كهربي، اقترب أحدهما من الآخر علهما يشعران بالدفء، لكن الدماء في عروقهما كانت تسير الهويني، وقد قاربت على الجفاف



كجفاف جيب الحاج من المال، إذ إنّ راتبه التقاعدي لا يكاد يكفي لتأمين اللقمة فقط فكيف بباقي المصر وفات؟!.. تنهد بصوت عالٍ تنهيدة حملت في طياتها كل هموم سنيه العجاف التي يعيشها، سمع الحاجّة تقول بصوت مرتعش:

- أنجبنا ثماني بنات واثنين من الأولاد!.. أفنينا سِنِي عمرنا في سبيل تربيتهم، تزوج الجميع، ورفدوا الفقر بدماء جديدة!.. خاضوا غِمار الحياة ومعتركها، فعصفت بهم رياح الحياة كلٌ في اتجاه، فنسوا حليب أمهم وشقاء أبيهم!..

_كان الله في عونهم، لكل منهم اليوم شأن يغنيه، فالحياة تطحنهم دون رحمة كرحى صهاء، لكني أعرف أنهم يحنون إلى هذا البيت وإلى تلك الأيام الخوالي كها يحن الطائر إلى عشه!.. لقد كانوا يملؤون علينا البيت، ويضج بصخبهم ودف عبتهم، أصبحنا أنا وأنت اليوم يا حاجة وحيدين كشجرة عجوز هجرتها ثهارها وأوراقها وأطيارها، فوقفت عارية في وجه الريح والبرد!..

.. آه البرد لا يطاق ... قم تصرف يا حاج، فتش في الجوار عساك تجد بعض الحطب كي نشعله ليدفع عنا البرد !..

نظر الحاج إليها نظرة استغراب وأجابها

عانيكِ ميا زلت تعيشين في الماضي، أين هي الأشجار وأين هو الحطب؟!.. ألا ترين كيف اغتال الإسمنت والإسفلت كل ما هو أخضر ويابس، أتحسين نفسك أنك ما زلت تعيشين فيها يسمى بغوطة دمشق؟!.. وأين هي الغوطة الآن يا حاجة؟!.. أكداس (البلوك) زرعت محل الأشجار والزهور والرياحين.. هل تريدينني أن أحضر لك (بلوكة) كي نتدفأ بها؟!..

عروقي، المرد المستطيع الاحتبال؛ البرد يجمد الدم في عروقي؛ أكاد أمور.

تجمد الصوت وماتت الكلمة على الشفة قبل أن تنبس؛ الحاج استعاد شبابه وانتصب واقفًا كهارد جبار هزته ربح عاتية؛ وراح يدلك بدي الحاجة ووجهها؛ وهو يصبح:

_استيقظي يا حاجة ا.. لا تتركيني أرجوك ا.. أعرفك صبورة، وقوية فها الذي جعلك تنهارين ا.. آه لن أجعل البره ينتصر على وعليك ..



لا يعرف ما الذي جعل طيف طارق بن زياد يسيطر على مخيلته.. الجنود أصبحوا على اليابسة.. السفن ترسو خلفهم على الشاطئ.. طارق يريد النصر.. أحرق السفن يا طارق يكون لك النصر.. انتفض الحاج الشاب وقد بدا له طريق النصر واضحًا فراح يحطم الطاولة الخشبية الوحيدة والتي كانت تستعمل في البيت لطعامهم ولدراسة الأولاد.. الجميع كان لهم ذكريات وذكريات مع هذه الطاولة التي أكل الدهر عليها وشرب، وشاركتهم أغلب مراحل حياتهم.. راح الحاج يلقى بخشبها في المدفأة!.. اشتعلت النار.. ثم انقض الحاج على خزانة الملابس يحطمها.. تلك الخزانة الهرمة ذات الخشب المقفع، والتي شهدت عرسه يومًا، واستعملها الجميع منذ ولادتهم إلى أن تم لهم الزواج ومغادرة البيت.. اليوم لا ضير عنده في أن يحرق جميع مراكبه لينتصر على البرد ويستعيد الحاجية.. فتحت المدفأة فاهيا وراحت النار تزغرد داخلها، وهي تلتهم خشب الذكريات والتاريخ بشراهة.. انتشر الدفء في جو الغرفة وسرى إلى جسد الحاجة، الذي كان يُدلَك بيدي الحاج المعروقتين.. كانت عينا الحاج كعيني صقر تدوران في محجريها، وترقبان الجفنين المغمضين.. وأخيرًا،

فتحت عينها ببطء شديد، وهي تنظر إلى الحاج نظرة حب وامتنان، فصاح الحاج مغتبطًا، وهو يدور حول نفسه، وكأنه يرقص رقصة النصر:

_الحمدش. الحمدش. لقد استعدتُك يا حاجة، لقد انتصرنا!..



٢٦- الحريساء

000

انطلق يعدو من غير أن يلتفت وراءه، يحث الخطا باتجاه اللاشيء، ضجيج الشارع وحركته الملتهبة لم تثر في نفسه أي إحساس، واجهات المحال التجارية ذات العرض الأنيق وإضاءاتها الملونة لم تخفف من سرعة جريه، نظرات المارة التي تقرع جسده لم تشعره بأنه يعدو كمجنون..

خطواته متلاحقة، عيونه متسعة بشكل دائرة تتقيأ القرف والاشمئزاز، وجهه تتقلب ألوانه كحرباء.. وعقله لا يفكر إلا بصوت باب بيته عندما صفقته أنيسة خلفها وهي تصرخ:

ـ طلقني لن أعود إلى هذا البيت ثانية!..

شعر بإعياء شديد بعد هذا الجري اللاهث، ووهن يسري في جميع أنحاء جسمه، وعرق دبق يلصق ثيابه بها تحتها، أحس بالقرف، تمنى لو أنه لم يلد، تمنى لو يكون الليل بلا نهاية، ليختبىء تحت جنحه الأسود من نفسه.. ومن الناس.. ومن خالد وحميدة وفريدة، ومن كل شيء.. تمنى لو أن الزمن يعود القهقرى يرجع خسة عشر عامًا فقط.. قال في نفسه:

______ ivo sta

_ لو يرجع .. فسأقذف بحب أنيسة هذه إلى الجحيم، أجل الله المحيم، أجل الله المحيم، لله أريد حبها ذاك الذي أسرتني به في تلك الأيام .. لقد كانت جيلة يوم تعرفت عليها، كانت جذابة وذات روح حلوة، آو كم افتتنت بها .. كنت أرى الحياة من خلالها، كانت هي كل شيء في حياتي، كنت أمنحها حبًا و شعورًا صادقين، لم أضن عليها بشيء في يوم من الأيام كانت كلماتها أرق من النسيم، وأجلى من العيسل .. آه مازالت تطرق ذاكرتي كلماتها يوم عرسنا:---

ساعيش لك وحداث يا وجدي إنني أنذر حياتي من أجل أن يبقى حييد أبد الدهر.. أنت حبيبي الأول والأخير..

ابتستم پستخرية تقطر اشمئزازًا وقرفًا.. وتابع يكلم نفسه:

- استهلاك أ .. إن كلمات الحب في أيامنا هذه تستهلك أكثر من مغلديل (الكلينكس)، كلمات جوفاء تلقى في الهواء كما يلقى أي مبلل معطّر بعد استعاله ! . .

هدَّه الإحنياء والتعب فألقى بجسده على أحد المقاعد العامة في الشارع وراح يتصور شريطًا سينهائيًا مدته خسة عشر عامًا

لينًا بالعذاب والنكد قضاها مع أنيسة.. في السنوات الأولى لزواجها كان يبثها كل ما لديه من حب وحنان.. لكنها كانت تبادله ذاك العطاء بتعال وتكبر وصلف، وكأن جمالها قد غرس فيها تلك الصفات بعد الزواج، أو أن عطاءه الدائم لها هو ماجعلها ترتقي سدة التعالي والتكبر.. سنوات مرة عاشها وأنجب خلالها أولاده الثلاثة.. وبعد تلك السنوات المرة، مرت الأيام الباقية ثقيلة مملة لكلا الطرفين، فقد نضب معين العطاء عنده هو الآخر، فصارت الحرب بينها سجالًا، والقصاص بينها العين بالعين والسن بالسن..

شعر بالخدر يسري في ساقيه تململ على الكرسي الخشبي، راح يقلب في مخيلته الصورة الأخيرة والحوار الأخير الذي سبق صفق الباب:

- ما ذنب الأولاديا أنيسة؟!..
- _الأولاد كبروا وهم ليسوا بحاجة لي الآن!..
- ما هذا الكلام؟ وهل ترضين أن يعيش أولادك بدون أمهم؟!..
 - _قلت لك إنهم ليسوا بحاجة لي الآن!..
 - ـ فكري مليًا يا أنيسة!..

|--|--|

- -إننى فكرت بها فيه الكفاية.. طلقنى!..
- _إذا طلقتك فهل ستكونين سعيدة في بيت أهلك؟

_هذا ليس من شأنك!.. بل سأكون صريحة معك أكثر، إنني أحببت شابًا.. هو صديقك سامر، أنت تعرفه.. واتفقنا على الزواج، وانتهى كل شيء..

تذكر كيف خرست الكلمات على شفتيه، وكيف تهدم فوقه جبل صمت مطبق، ولم يصحُ إلا على صدى صوتها يتردد في جنبات البيت وصفق الباب:

_ طلقني لن أعود إلى هذا البيت ثانية ! . .

صحا من أفكاره على لمسات من أصابع يد أحد أصدقائه وهو يداعبه قائلًا:

- ما بال قيس بن الملوح شاردًا؟ !..
- ـ لعنة الله عليك وعلى قيس بن الملوح ...

نهض من كرسيه وكأن به مسًا من جنون وانطلق يعدو بانجاه اللاشيء..



۲۷- الزمن الضائع حک

جلس على طرف إحدى الإطارات بعد ما أنهى إصلاحها وتعبثتها بالهواء..

راح العرق يتصبب من جبينه كقطرات ندى على سطح صخرة حفر فيها الزمن أخاديد عميقة..

أخذ نفسًا عميقًا وكأنه يريد من الهواء الداخل إلى رئتيه أن يقتلع كل هموم صدره وأحزان حياته.. إنه كطائر بري هجر موطنه الأصلي، ليبدأ رحلة طويلة كسائر الطيور التي تقوم برحلتها السنوية، وبعد أن تقضي رحلتها الشاقه البعيدة تؤوب إلى موطنها.. لكنه قد بدأ رحلته منذ زمن بعيد، منذ سبعة وعشرين عامًا..

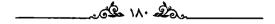
بدأ رحلة الغربة، وغاص في أعاقها، وهو يؤوب إلى موطنه ولكن ليس كالطيور في كل عام، بل كل أربع سنوات أو خسس ليقضي هناك شهرًا أو شهرين من الزمن ثم يبدأ الرحلة ثانية.. الطيور البرية تحمل معها في رحلتها كل فراخها القادرة على الطيران وهو.. هو لم يحمل معه أحدًا، لم يحمل

حتى زوجه ولم يحمل ولديه.. لم يحمل معه سوى شيء واحد هو شريط ذكريات مهترىء قد أكل الدهر عليه وشرب، شريط قد بهتت فيه كل الألوان وضاعت فيه معالم الوجوه وتضاريسها وطمست فيه الملامح..

باحت عيناه بحزن لا يطاق وحرمان لايرحم وغربة قاتله.. يذكرك شعره الأشيب بالثلوج التي تغطي قمة جبل الشيخ شتاء، وتوحى إليك تجاعيد وجهه

بأنها صورة فوتوغرافية التقطت من طائرة لمنطقة جبلية وعرة.. لقد حفر الزمن في وجهه خطوطًا عميقة تعبر عن كلهات ثلاث: غربة.. حرمان.. شقاء.. تململ في جلسته وهو يسترجع شريط ذكرياته المهترىء متمتيًا:

ـ لا بدأن حياتهم هناك أفضل من حياتي هنا بآلاف المرات.. كنت أرسل لهم نقودًا لا بأس بها كفيلة بأن تجعلهم يتمتعون في حياتهم ويعيشون عيشًا لا بأس به.. وتمنح لولديّ الفرصة في أن يتها تعليمها.. أما الآن فقد قارب المعين أن ينضب، والنهر أن يجف، فعملي في نهاري كله لا يتعدى بضع ريالات لا تغطي حتى قيمة إيجار مكان العمل.. وشبابي قد



غساع وقوري لم تعد كما كانت بالأمس، وقلبي يتمزق حرقة وأليًا. عِلى مِا أُلِتِ إليه، فأنا أحس بالضياع أحس كأنني ورقة خِريفية مهددة بالسقوط لأقل نسمة تلامسني .. ضاعت الآميال وضاعت الأيام وضاع العمر كل شيء ضاع في حِياتي.. حتى حياتي.. المحبة.. الأمان.. الهدوء.. الاستقرار.. الألفه.. الحنان.. كلمات يستعملها الجميع ويعيشونها، أما أنا فِلاِ أُعِرِفِ سِيوي سِهاعها وقراءة رسم أحرفها!.. آو.. لعلى مثِل أبي عامر ذلك الراهب الذي نفذت فيه دعوة رسول الله صَالَاتِهُ عَلَيْهُ وَسَلَمْ بِأَن يعيش طريدًا ويموت غريبًا.. وها أنذا قد أمضيت حياتي كالطريد وليس مستبعدًا أن أموت هنا غريبًا.. أتوه في دروب النسيان، أغوص في أعماق ظلمة حالكة تلفها سرابيل الغربة القاتلة..

أحس بأن الدم لم يعد يسري في ساقيه من كثرة الجلوس فنهض متثاقلًا وكأنه يحمل نصف العالم فوق وركه، مشى متهايلًا يمنية ويسرة، شعر بإعياء شديد يهد جسده المتآكل فأغلق دكانه ومشى إلى موقف باص ليقله إلى بيته، دخل غرفته وألقى بجسده المضنى وبها يحمل من هموم على فراش بالٍ من الإسفنج وبدأ يفكر ماذا يعد اليوم لوجبة العشاء وتذكر بأن الأواني التي تناول الطعام فيها البارحة لم تغسل بعد فعليه غسلها أولاً ثم عليه إعداد الطعام وترتيب الغرفة وتنظيفها ونظر إلى ثيابه الرخيصة وقال: في نفسه لابد من غسلها هي الأخرى فلم يعد يعرف لونها الأصلي.. ثم قام من مضجعه وغسل إحدى الصحون وفتح علبة (سردين) وجلس يأكل فترى يده تصعد وتببط إلى إناء الطعام ببطء شديد وهو شارد الذهن واللب..

وبدأت الأفكار تتصارع في رأسه كأمواج البحر في تلاطمها وانتقل بتفكيره إلى مائدة بيته الصغيرة وزوجه ولديه ملتفين حولها والكل مبتهج بوجوده بينهم وهو يحاول أن يدفق كل ما يختزنه من حنان ولكن هيهات أن تملأ هذه الدفقة من الحنان الهوة الكبيرة التي حفرها البعد..

انتبه من شروده على صوت من أعماقه يؤنبه:

لم كل هذا البعد؟!.. لم هذه الفرقة؟.. ألست بإنسان؟.. أليس لك ارتباط بإنسانة وأولاد؟!.. وبأهل وأصدقاء

و جيران؟ أليس لك ارتباط بالأرض التي كان فيها مسقط رأسك؟!..

تخلخلت أفكاره إزاء هذه الأسئلة المتلاحقة النابعة من أعهاقه.. حاول الأجابة:

- أنا تغربت وطلبت رزقي بعيدًا عن بلدي كي أؤمن لزوجتي وأولادي حياة هانئة سعيدة وأجعل تحت أقدامهم أرضية صلبة يستطيعون الوقوف عليها، أنا لم أسع لنفسي فقط وإنها سعيت من أجلهم..

وعاد الصوت الداخلي غاضبًا يفتت أضلاعه ويوقف الدم في عروقه صارخًا:

-إنك إذن تسعى من أجل أن توفر المال لزوجك وولديك هذا جميل!.. ومن حقك أن تسعى هذا السعي في حدود المعقول.. تسعى سنتين!.. ثلاثًا!.. خسّا!.. أما أن تتركهم سبعًا و عشرين سنة.. فها هذا السعي؟!.. هل هذا سعي أم حب مال أم هروب؟!.. لابد أنه كان في البداية سعي، وانتقل بعدها إلى حبّ لجمع المال.. صحيح أنك الآن لا تجمع مالًا.. وما تعمل به من أجر قد لا يكفيك لسد الرمق

ولكنك تجلس الآن منتظرًا تحشن الأحوال وعودة عصرك الذهبى في جمع المال.. هل علمتك هذه السنين التي قضيتها من عمرك أن المال هو كل شيء في الحياة؟ ! . . هل تعلم بأن مال العالم كله لايساوي لحظة حب متبادل ولحظة عطف وحنان على ولديك اللذين عاشا شبه يتيمين وزوجتك التي عاشت شبه أرملة؟.. لماذا كل هذا الشقاء ولم يبقَ من العمر إلا أقله؟.. لماذا المكابرة؟.. ما أبشع الجشع ا.. لقد جعلك عبدًا للمال مجردًا من الحب، مجردًا من العواطف الإنسانية النبيلة.. محرومًا من أعز شيء في الوجود.. محرومًا من العيش بين ولديك وزوجك وأهلك.. محرومًا من تراب تتمسك به وتنتمي إليه.. المال ما هو المال يا عبد المال؟.. هو وسيلة لقضاء الحاجة ليس أكثر من ذلك.. جعلته هدفك وأفنيت عمرك من أجله، وليتك بعد كل ذلك حققتَ هذا الهدف!.. لقد ضيعت عمرك سُدي وهدرًا من أجل المال!..

صاح مضطربًا بأعلى صوته:

_ كفاك تأنيبًا ولومًا فإنني لن أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك!.. هل أنا حقًا عبدٌ للهال؟!..

وقف منتصبًا على قدمين مرتعشتين فهوى منكبًا على فراشه تجهش شيخوخته بالبكاء والدمع يتخذ مجراه في تلك الأخاديد التي حفرها الزمن في محياه ويبلل شُعَيْرات ذقنه البيض!..



۲۸- الصوبت

000

عقارب الساعة تشير إلى الثامنة والنصف، جهزت حقيبة جلدية صغيرة، ورحت ألقي نظرات وداع أخيرة، متلمسًا بعيني كل الوجوه التي تحيط بي، متلمسًا غرف البيت، جدرانه، أثاثه، صورة والدي المرحوم، المعلقة في ركن مهمل من البيت. أمطرت على نظرات أمي، تحمل حزنًا عميقًا، وعيون أخوتي الثلاثة، كانت تدور في فلكها محاولة أن تقفز من محاجرها. الكلمات فوارس قتلى على الشفاه المطبقة، الأسنان تصر كأحجار الرحى..

انهد جبل من الصمت فوق الرؤوس، لم يخرقه سوى صوت خطواتي وأنا أتجه إلى مقعد في الصالة كان بالأمس البعيد مريحًا، ألقيت جسدي عليه، أنتظر انقضاء نصف ساعة من الزمن ليحين موعد مغادرتي البيت، قذفت برأسي إلى مسند المقعد لأريحه من عناء ما يحمل، وغصت في تفكير عنيف، قادني إلى ذلك اليوم الذي تزوجت به أمي من فائز، اللذي كان يعمل عند أبي رَحَمُهُ اللّهُ.. كان فائز هذا يطيع كافة

|--|

لأوامر، ينفذكل ما يطلب منه، يتظاهر بالمسكنة والوداعة، إلى أن تـوفي والـدي، فطلق زوجته على حـد زعمه وكان ذاك الزواج المشؤوم..

صوت صدىء يرتطم ببلاهة على جدران البيت، ثم يرتد إلى أسهاعنا وكأنه طبول الحرب:

- _أنا السيد هنا شئتم أم أبيتم، ومن يعارضني فسيلقى منى ما لا يتوقعه، أنتم لي وكل ما تملكون هل تفهمون؟!..
 - _ها!..ماذا؟
 - _ماذا تقول؟..
 - ـ من الذي جعلك وصيًا علينا؟..
- _ليس من حق أحد أن يمتلكنا، نحن خلقنا أحرارًا وسنعيش أحرارًا..
- _إنك غريب عنا، وليس لك أي حق علينا أفهمت يا فائز؟..

أمى بصوت مرتجف قطّعت أوصالَه المفاجأة:

ما هذا الكلام يا فائز، عوضًا عن أن تكسب ود الأولاد تريد أن تأخذ منهم كل شيء حتى حرياتهم؟.. تريد

إن تخنقهم وهم أحياء؟.. أبنائي رضعوا الحرية منذ صغرهم وكبرت فيهم وكبروا فيها، وأنا لا أسمح لك أبدًا أن تعاملهم هذم المعاملة..

_اخرسي .. سأقطع لسانك إن سمعتك تتفوهين بأي كلمة تزعجني أو تثير أبناءك ضدي ..

كف لئيم ابتعد عن جسده وهوى ليرتطم على أحب وجه لنا في هذا العالم، تناثرت الدموع على وجنتي أمي وماتت الكلمات لتحيي شهقة ألم في صدرها الحنون، وترسم هول مفاجأة في عينيها الحبيبتين..

حقد تأجيج في صدورنا، دماؤنا اندفعت في عروقنا مسرعة، وكأنها تحاول أن تجد لها مسربًا لتخرج منه..

انشلت العقول، ضاع الإنسان، اندفعتُ أنا وأخوتي الأربعة محاولين الوصول إليه وتمزيقه إربًا إربًا..

نعق بومان هما ولداه لزوجته الأولى:

_إن تحركتم خطوة أخرى إلى الأمام، أحرقنا بكم وبأمكم الست..



شممت يومها رائحة (الكيروسين) الذي كانا قد أفرغاه حول البيت، وفي داخل بعض الغرف، شممت الغدر والإرهاب، وصناديق أعواد الثقاب بأيديهم على أهبة الاستعداد، جمد في عروقنا الاندفاع، أصبحنا رجالًا من الجبس، تراجعنا مهزومين، منكسي الرؤوس.. تعالت قهقهات نصر أصمت آذاننا..

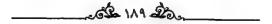
صحوت من هذا التفكير على لمسة من يد أحد أخوي، نظرت إلى عينيه، قرأت ضيقه وإشمئزازه من تلك الحياة التي نحياها، وكأن هاتين العينين راحتا تباركان انفصالي عن البيت، لأعيش حيات بحرية..

أجَلتُ ناظري على بقية العيون قرأت فيها:

ـ لا ترحـل فنحـن بحاجـة إلى أن تكـون أيدينـا يـدًا واحدة..

- ـ ابقَ معنا ولن يدوم الليل!..
- _ يا بُني الصبر الصبر! . . نحن بحاجة إليك . .

أغمضت عيني لكي لا أقرأ المزيد فيتأرجح قراري داخل نفسي، ورحت أغوص في تلك الذكريات التي أدت بي إلى قرار الرحيل..

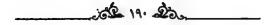


لن أنسى ذلك اليوم الذي أخذ فيه مناكل شيء وحرمنا من كل شيء، فأصبحنا كالعبيد بين يديه، حاولنا أن نتكتل نحن الأخوة وأن نفعل شيئًا من أجل أن يطلِّق أمَّنا ويبعد عنا.. فأحس الذئب بالخطر فعمد إلى كسر رأس حربتنا الأخ الأوسط فأسقطه أمام أعيننا من الشرفة ولفق الأمور أمام الجيران بقوله:

- كان ينظر من الشرفة إلى أسفل فشعر بدوار وسقط!..
حاولنا أن نتحرك كرجال بعد قتل أخينا الأوسط، لكن ضربات عنيفة انهالت على رؤوسنا من فائز وابنيه أفقدتنا صوابنا.. فأصبحنا نرى حتى في أحلامنا أعواد الثقاب وصفائح (الكيروسين) والعصا الثقيلة والموت..

ألسنتنا انشدت وهي في كهوفها إلى الخلف بنوابض قاسية، فساد صمت.. وتحركت رجال الجبس لاتلوي على شيء، سوى الخوف والمحافظة على الحياة..

هـذا الكرسي اللعين ما باله لم يعد مريحًا، الخدر يسري في ساقي، أمي تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، ضاربة كفًا بكف.. أقرأ في عينيها أسئلة عتاب:



_كيف ستتركنا وترحل؟.. كيف ستتركنا لتلك الأنياب الحادة.. كيف.. كيف؟..

أخوتي يحملق كل منهم بجهة مقطبًا حاجبيه، وكأنه يفكر بمخترع جديد، والصمت يلف الجميع بردائه الأسود.. وصوته الكريه يصفعني، ينغرز في جسدي كنصول الخناجر، أثور داخل نفسي أتمنى لو أكتم هذا الصوت إلى الأبد..

ـ استخدمتموني يوم كان أبوكم حيًا، والآن جاء دوري لأستخدمكم بل وأهينكم كعبيد!.. ما رأيكم؟!..

نوابض الألسن تشدها إلى الوراء تموت الكلمات، تنحني الرؤوس، يغلي الدم ويفور، يسود الصمت، تضيق الصدور، تنتفخ البطون كبالون مطاطي، الجميع حبالى يتمنون الولادة.. يتمنون الإجهاض..

الحقد الدفين، والألم المزروع في النفوس نما وترعرع، ولم تعد تسعه الصدور، ولاحتى البطون، ونوابض ألسنتنا أصبحت صدئة، وهيهات أن ينفرج فم عن بنت شفة.. بل لقد انزلقت ألسنتنا إلى أعهاقنا وابتلعناها، وكأننا نبتلع قطعة من زجاج، لكن صوته الأجش الذي يقلب الحق باطلاً،

. CO 191 - 20 ...

والباطل حقًا، وإهاناته لنالم تنهضم عند ابتلاعها فانتفخت منها البطون. أصبحت ابتسامتنا الذابلة هي الرد الوحيد عليه وعلى كافة ضغوطه، صرنا نرسم الابتسامة، ونحاول أن نظهرها على أنها ابتسامة صافية، ونخلي وجوهنا من أي تعبير ينم عن الاستياء، ونتجرع سم إهاناته وضغوطه ليفعل داخل نفوسنا ما يفعل. أأصبحنا نجيد التمثيل؟.. أأصبحنا نجيد التعثيل؟.. أأصبحنا نجيد التعثيل على الوجوه.. كيف؟.. كيف؟.. كيف؟..

عقارب الساعة تشير إلى التاسعة إلا بضع دقائق، جرس الباب يقرع، الصديق المنتظر يدخل موجهًا كلامه لي:

- الغرفة التي أردتني أن أستأجرها لك أصبحت جاهزة، هاك مفتاحها!..

حملت حقيبتي الجلدية الصغيرة، رفعت رأسي فالتقت نظري بسيل من النظرات التي لم أحاول ترجمة شيء منها، فتحت الأفواه لتنطق بكلمة وداع، لكن النوابض صدئة والألسنة قد ابتلعت.. آثرت الإسراع بالخروج وأغلقت الباب خلفي.. وتركت الصمت في البيت هو السيد.. متطلعًا للعودة يومًا ما..

19- الكُّراج (أو الحصان البشري) ©

توقف عن الجروهو يتصبب عرقًا، رفع كم قميصه الممزق ليجفف ولو قليلًا من سيل العرق المنهمر باتجاه عينيه، ناسيًا أن قميصه يعتصر عرقًا أكثر من جبهته. أسبل يده ليركيها على طرف عربته الخشبية (الكرَّاجة) التي تسير بشلاث عجلات هو أحدها، فبانت عروقها منتفخة وكأنها موشكة على الانفجار كعروق جبهته التي تتدافع باتجاه الخارج لتسابق عينيه في الجحوظ وقلبه في الخفقان..

طعن الإنسان في داخلي حتى غاص في بحر من الدماء إثر هذا المنظر الذي يحل فيه الإنسان مكان الحيوان الذي سخره الله لنا لنستخدمه في عمليات الجرهذه، فعشرون صندوقًا من الفاكهة قد يتلكأ الحيوان عن جرها فنرأف به، وإنساننا هذا بعيد عن كل رأفة.. طار صوابي، تسمرت عيناي وأنا أرقب رجليه النحيلتين المشمرتين حتى الركبة، تتراقصان تحته من شدة التعب وكأنها موضوعتان تحت تأثير تيار كهربائي..

ثار في داخلي الإنسان، بالرغم من اعتقادي المطلق بأن العمل شريف بذاته، ولكن هذا العمل فوق الطاقة الجسدية للإنسان وانتقاص لمكانته كإنسان سُخِّر له كل ما في هذا الكون ليكون في خدمته.. بدأت يده تتلمس حزامًا جلديًا ثخينًا مثبتًا على العربة لتضعه على الكتف الأيمن بصورة صحيحة، تململ جسده النحيل تحت ثقل العربة المكتظة بصناديق الفاكهة، ندت عنه صيحة مخنوقة من شدة التعب:

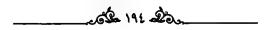
- دفشة يا شباب!.. على حب النبي دفشة!..

ولم يتحرك دولابا العربة حتى كادت عينا المحرك أن تخرجا من محجريها، وانطلقت العربة تسير ببطء شديد وصوت مرهق لاهث يتابع مسيرتها:

- اوعًا!.. اوعًا يا أخونا!..

وآلاف العيون المتحجرة على جنبات الطريق لاتهتم بشيء..





۳۰- أنسا وهسو الماهاي

-أنا محمد الحلبي، أحمل بطاقة شخصية بهذا الاسم وكذلك بطاقة عائلية سبجل بها العديد من الأولاد الذكور والإناث.. من الغريب في الآونة الأخيرة أنني عندما وقفت أمام مرآة نفسي، وجدت نفسي اثنين، بنفس الملامح، بنفس الوجه.. نفس الجسم لكن الحشوة الداخلية مختلفة، أناقشه فيناقشني يحمل أفكارًا غير أفكاري وروحًا غير روحي.. سألته: من أنت؟ قال: أنا أنت!.. دهشت لهذه الإجابة!.. أخذت نفسًا عميقًا لأغذي مخى بمزيد من الأوكسجين كي أستوعب الموقف!.. كيف أنت أنا؟.. وأنا أنت؟.. دار بيننا نقاش طويل وحاد.. لم نلتق بوجهة نظر واحدة.. شكله الخارجي نفس شكلي، لكن المضمون مختلف تمامًا!.. هالني ما رأيت!.. فالتجأت إليك..

الطبيب،

بسيطة!.. بسيطة!.. حالتك هذه قريبة من مرض انفصام الشخصة..

|--|--|

محمد:

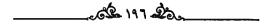
- وهل هذا المرض خطير؟..

ـ لاتخف فالعلاج النفسي اليوم متطور جدًا وعلاجك بسيط.. استلق على ظهرك، خذ نفسًا عميقًا.. أغمض عينيك، أريد أن أعرف كل شيء عن حياتك، حدثني وأنت مسترخ تمامًا، دع لاشعورك يفضي بكل ما بداخله..

انتحرت الأيام يومًا بعد يوم، ومضى العمر سريعًا، أوراق الخريف صفراء تعصف بها الرياح، يمشي الدم كنهر هرم، العواطف فقدت حرارتها وأصبحت بضاعة قديمة، الكلمات اهترأت وحروفها لم تعد تحمل معانيها، الحياة مملة رتيبة يسري في عروقها بردكانون ويغطيها ثلج آذار، كل الأيام متشابهة ذات ملامح واحدة..

_ماذا تقول؟.. ما علاقة كلامك بموضوعنا؟.. قلت لك حدثني عن نفسك.. أجل عن نفسك فقط!..

_آه!.. عـن نفسي أنا.. أنا من أنا؟.. تريد أن أحدثك عن أنا أم عن هو؟..



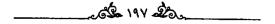
_أوه!.. أرجوك ركّز أفكارك وحدثني عن حياتك أنت..

- حياتي أنا!.. لقد عشت طفولة هنيئة، أحببت فيها الطبيعة بوردها وزهرها وخضرة بساطها، عشت حالًا مع فراشها، أهوم في بساتينها، أرتشف الجهال وأجنيه كها يجني النحل رحيق الزهر.. اصطبغت نفسي بصفاء الطبيعة ونقائها فغرست بي رقتها وعذوبة ألحان عصافيرها، فأصبحت نفسي شفافة كقطرة ندى في صباح يوم ربيعي، أحببت البساطة، أحببت العطاء، أحببت الصدق، كرهت التكلف والتعقيد والغش.. هل من الضروري أن أتكلم كل شيء عن حياتي؟..

الطبيب:

- أجل!.. أجل.. تابع!.. أريد أن أعرف كل شيء حتى أستطيع تشخيص حالتك بشكل جيد..

ـ تلك كانت جذوري التي منها استمدّدت الحياة وابتدأت رحلة العمر.. أبحرت بقاربي الصغير، أمخر عباب هذا العالم وأخوض غهار الحياة، تصقلني التجارب وتعلمني



الأيام.. أبحرت وليتني لم أبحر!.. ليتني بقيت طفلًا، أعيش مع الطبيعة بصفائها ونقائها، أتفيأ بوارف ظلها وأستحم بنور شمسها..

الطبيب

- لماذا هذا الهروب؟.. لماذا تتمنى أنك لم تبحر؟
- ـ أرجوك ألا تقاطعني.. آه لقد ذكرتني بإنسانة عزيزة على قلبي، تهوى المقاطعة، ليس هذا فحسب بل إنها تنقلك من موضوع إلى آخر بسرعة البرق من غير أن تدري بنفسك، آه إنها إنسانة ذكية لماحة..
- ـ وهل ستظل تحدثني عنها؟ رجاءً ارجع إلى الحديث عن نفسك..
- لا بأس.. لا بأس.. عندما أبحرت رأيت العجب العُجاب كما في حكايا (ألف ليلة وليلة)، رأيت اللون الأبيض الذي أعرفه ورأيت الأسود الذي أمقته.. والأعجب من ذلك أن هناك لونًا رماديًا.. تصور؟!.. رماديًا.. أليس هذا مما يثير الاشمئز از والقرف.. رماديًا!..

فترة من الصمت، فرك جبينه ثم تابع:

رأيت السمكة الكبيرة تأكل الصغيرة، رأيت القطة الوديعة تأكل أبناءها، رأيت اللبوة المفترسة تكشر عن أنيابها لتحمى صغارها، رأيت أشجار السنديان، رأيت اللبلاب.. رأيت.. رأيت.. ما أشبه الحياة بقطعة النقود.. رأيت وجهها الآخر!.. حزنت نفسى داخل نفسى.. فتشت عن الإنسان.. أجل فتشت عن الإنسان.. هل ضاع؟.. هل تلاشى كما يتلاشى زبد البحر؟ . . آه لم أنسك أيها الفيلسوف يوم حملت فانوسـك في وضح النهار، ومشـيت فسـألوك لماذا تحمل هذا الفانوس وعمّ تبحث؟.. قلت يومها كليات خالدات، قلت: إنني أبحث عن الإنسان!.. بحثت أنت وبحثت أنا ياسيدي، وجدت قلة نادرة نستطيع أن نطلق عليها كلمة إنسان!.. من بين الملايين الذين لا أعرف ماذا أسميهم.. حملت الإنسان بين ضلوعي في شراييني في كياني!.. أداريه أرعاه كما ترعى الأم وليدها.. أجل يا سيدي عشت كإنسان، حققت الإنسانية داخلي، حاولت أن أزرعها في المحيط حولي.. نجحت حينًا، و فشلت أحيانًا..

الطبيب:

- جميل.. جميل جدًا بدأت أفهمك الآن.. أفهمك تمامًا، إذا تعبت فبإمكاننا أن نتابع في جلسة أخرى..

ـ لا.. لا.. لم أتعب بـل عـلى العكـس فأنـا مرتـاح جدًا لأنني أفضي إليك بما يعتمل داخلي، وأرجوك للمرة الثانية ألا تقاطعني..

_حسنًا.. تابع.. فأنا مصغ إليك..

- هملت الإنسان داخلي ياسيدي وتابعت إبحاري، كان قاربي صغيرًا وشراعه كبيرًا جدًا.. تقاذفتني الأنواء والأعاصير فوجهتني وجهات كثيرة عشت المد والجزر، سلكت فجاجًا صعبة ودروبًا سهلة، ضعت في مسالكها وفي شعابها، مشيت شرقًا وغربًا، وأخيرًا وجدت طريقي إلى اليابسة، إلى الأرض التي كنت أعتقد أنها صلبة تحت أقدامي ولن تهتز أبدًا.. نسيت أو تناسيت أن داخل كل نفس إنسانية توجد زلازل.. بل توجد براكين تذيب أقسى الصخور، فها بالك بقلب كقلبي.. عشر سنوات وأنا أقف على هذه الأرض التي اعتقدت أنها صلبة، عشر سنوات لم تستطع الأهواء أن

تنلاعب بي أو تنال مني، كشجرة سنديان جذورها راسخة في الأرض وفروعها في السهاء.. أما الآن؟!..

صمت محمد فترة طويلة وهو يحدق باتجاه واحد وكأنه يتأمل لوحة فنية ساحرة، الطبيب جلس صامتًا خوفًا من أن يقطع له سلسلة أفكاره.. فرك محمد جبينه وكأنه يستجمع أفكاره، نظر إلى الطبيب نظرةً فاحصة وسأله:

ـ بــالله عليك هل وصلت إلى تشــخيصِ مرّضي وسـبـبِ عِلّـتي؟..

حتى الآن أستطيع أن أجزم أن تركيبك النفسي سليم وليس فيه عيب أو خلل، ولكن تابع.. أخبرني عن كل ما تشعر به..

- حسنًا سأتابع.. صحوتُ منذ أيام قلائل على شيء ما يتفجر داخلي، ينبوع رقراق يفيض بمشاعر رقيقة دافئة، نسيها قلبي منذ زمن ليس بالقصير، شعرت بأن الأيام بات لها معنى، ولم تعد الرياح تعصف بها إلى بئر النسيان، بات كل يوم له طعم ومذاق خاص به، تصور أيها الطبيب أنه أصبح لكل يوم شخصية.. أجل شخصية قائمة بذاتها.. مثلنا نحن..

فيوم الأحد غير يوم الخميس.. غير يوم الجمعة.. النهر الهرم المذي كان يترنح في عروقي أصبح نهرًا جارفًا جبارًا.. أعاد الربيع إلى كياني، ببراعمه النابضة بالحياة، بأزهاره الملونة وفراشه الحالم فاتقدت العاطفة بعد برودها وازدانت الأحرف فأصبح للكلمات معنى وللتنهيدات معانٍ..

صمت محمد هنيهة وأردف قائلًا: هل لي بفنجان من القهوة..

-أجل.. أجل.. عندي قهوة جاهزة ولكن أرجو أن تشرح لي أكثر عن هذا الينبوع الذي تفجر داخلك فإنني أرى أن هذه النقطة هامة في موضوعنا، ويجب أن نلقي عليها الضوء بشكل جيد.. هاك فنجان القهوة..

رشف من الفنجان رشفة صغيرة وقال في نفسه هذا البن من النوع الرديء.. البن الجيد سعر الكيلو أربعهائة ليرة.. لكن لابأس لعل القهوة تنشط ذاكرتي فأستطيع أن أشرح للطبيب عها يعتلج بداخلي ليتمكن من أن يخلصني من هذه الازدواجية التي أعيشها..

ماذا بك؟.. أراك قد طال صمتك؟!.. أرجو أن تكمل..

_آه.. لا بأس.. لا أعرف من أين أبدأ.. بل لا أعرف كيف بدأ. أجل لقد بدأ. أعرف عوارضه كما يعرف الطبيب الحاذق عوارض مرض مريضه.. أجل إنه هو.. شرود دائب، تفكير مستمر، شيء ما يعشِّش في القلب فتعزف نبضاته سمفونية الخلود.. تيار شوق جارف.. انطواء على الذات.. اتخاذ ركن هادىء لثلا تقطع لذة التفكير بالمحبوب.. من المؤكد أنه الحب. أجل إني أعرفه إنه الحب. ولكن هل هو جميل ولذيذ دائهًا؟ . . هل هو وصنال للمحبوب وإرواء ظمأ باللقاء؟ . . أم هو في بعض الأحيان أرق وسهاد ونار تكوي الفؤاد.. قلت بدأ ولا أعرف كيف بدأ !.. وكأننى كنت أبنيه أنا وهي لبنة لبنة، حتى أصبح هر مًا شامحًا من غير أن ندري .. منذ سنوات عرفتها وعرفتني معرفة خاطفة، لم نكن ندري أننا في يوم من الأيام سنكون صيدين ثمينين في شِسباك الحب. يقولون إن الحب أحيانًا يحصل من أول نظرة.. ولكن حبى وحبها نهاكما تنمو شتلة ورد صغيرة، ففي كل يوم تكبر وتكبر . كبرت

دون أن ندري.. لم نصحُ إلا وقد أصبحت شجرة ورد كبيرة يفوح شذاها فيعبق عطرها في قلبينا.. سمونا في سماء هذا الحب، غردنا مع بلابله، رفرفنا مع عصافيره، تراقص قلبانا على نغمات ناي مجنون، رشفنا رحيقًا ألذ من اللذة وأبحرنا بقارب الشوق داخل العيون..

ـ الله ما هذا هل أنت شاعر؟..

ـ لا.. لست شاعرًا ولا أجيد الشعر، بل أنا إنسان..

- في كل الأحوال كل ما تحدثت به شيء جميل جدًا والحب الذي تتحدث عنه هو من أنبل وأرق العواطف الإنسانية، وأجمل شيء في هذه الدنيا، فمن غير الحب لا معنى للحياة أبدًا..

قام محمد عن الكرسي بغضب وقال للطبيب:

- أضىء النور فإني لاأحب الظلام ولا مايجري تحت ستاره.. إن الذي كان يتكلم معك عن الحب إنه هو وليس أنا..

دهش الطبيب وألقى على محمد نظرات فاحصة علَّه يتعرف على سبب ثورته المفاجشة، ويتعرف على مكمن الازدواجية في هذه الشخصية التي أمامه.. فبادره قائلًا:

- ما بك؟.. إنه هذا الغضب؟.. منذ قليل كنت تتحدث برقة وعذوبة ما الذي أصابك؟!.. ولماذا تقول إنه هو الذي كان يتحدث عن الحب وليس أنت؟.. قل لي من هو؟..

كظم محمد غيظه وبدا عليه هدوء أعصاب نوعي.. وضع يده على جبهته، فبدا كمفكر مستغرق في التفكير، يحاول حل معضلة من معضلات هذا الكون.. طال صمته والطبيب ينظر إليه متأملًا..

رفع رأسه أخيرًا وأردف قائلًا:

- كنت تتحدث أنت وهو عن الحب وقد أثنيت أنت على حبه..

الطبيب:

- تقول هو فمن هو؟..

محمد:

- ألم تعرف حتى الآن من هو؟!.. إنه محمد الثاني الذي كلمتك عنه في البداية..

	2
--	----------

الطبيب:

- آه.. لقد فهمت عليك.. أنت إذن محمد الأول وهو محمد الثاني.. أكمل!..

محمد:

- أجل بالضبط!.. دعنا الآن نعمل العقل فيها كنتها تتحدثان فيه عن الحب.. أنا معك أن الحب هو شعور نبيل ورقيق بين اثنين.. ولكن أي اثنين؟.. هل نسيت أيها الطبيب أنني قلت لك في بداية الجلسة أن هناك بطاقة عائلية سُجّل فيها اسم زوجة وأسهاء أولاد ذكور وإناث؟.. وهل تدري أن الحبيبة أيضًا لها بطاقة عائلية سبحل فيها عدد من الذكور والإناث.. أي حبّ هذا الذي تتكلهان عنه؟.. وكيف لهذا والجب أن يثبت نفسه على أرض الواقع؟.. هل هذا هو الحب السامي النبيل؟!.. قل لي أيها الطبيب؟..

الطبيب:

- ها!.. ها!..

محمد:

- أرى الارتباك باديًا عليك!.. ألم تجد جوابًا؟.. أتعرف أيها الطبيب أن أفكار هذه الحبيبة واضحة وضوح الشمس

إنها أذكم منك وأعرف بمكمن الداء.. هل تعرف بهاذا وصفت هذا الحب؟.. لقد وصفته يومًا بالأنانية.. أجا, بالحب الأناني.. أما الحب الحقيقي كما هو معروف فليس كذلك بالطبع، إنه التضحية والعطاء والسمو أحيانًا فوق النفس الإنسانية، هكذا كانت تقول. أما هذه الحالة فقد وصفتها أيضًا بالخيانة.. أجل بالخيانة الزوجية.. الحياة الزوجية كما هو معروف أيضًا عهد ووفاء.. إذن هذا هو التناقض بعينه.. كيف لـك أن تعيش في قمة جبل وفي واد عميق في وقت واحد؟ !.. كيف لك أن تسمو بفكرك إلى عَنان السماء ورجلاك تغوصان في الوحل؟!.. كيف؟.. كيف؟.. ألف سؤال وسؤال.. آها.. أراك لاتجيب ما بك أيها الطبيب؟ ألا تستطيع أن تخلصني من هذه الازدواجية؟..

الطبيب

- ها!..

وأطرق الطبيب مفكرًا، وقد عقد ما بين حاجبيه، فبدا وجهه وكأنه يريد أن يجهش بالبكاء..

محمد:

- ما بك؟.. أرى أنك لا تفقه شيئًا في الطب النفسي.. اخلع هذا المعطف الأبيض!.. سأرتديه أنا.. تمدَّد على هذا الكرسي.. خذ نفسًا عميقًا.. أغمض عينيك.. حدثني عن حياتك وأنت مسترخ استرخاءً تامًا!.. أنت مريض بمرض يدعى الاكتئاب النفسي، لاتخف سأعالجك ولكن الآن أرجو أن تسمح لي بمغادرة هذه العيادة وهذا الضوء الخافت إلى النور.. إلى الشمس.. إلى الحياة.. فالورد لا يحيا في الظلام..

تـرك محمـد العيـادة وانطلق خارجًـا وهو يصيـح بأعلى صوته:

- إلى النور إلى الشمس.. إلى الهواء الطلق.. فأنا وهي نعرف حق المعرفة أن الورد لا يحيا في الظلام!..



۳۱- **حمار أبي نواس** ک**ک**

في يوم من الأيام صحاحمار أبي نواس باكرًا، ومرَّغ نفسه على أرض الحظيرة، كأنه يعلن ولاءه لهذه الأرض وحبه لها..

لكنه وعلى غير العادة، في هذا اليوم راح يفكر بوضعه وما يقاسيه بحياته وكيف أنه محتقر ومهان ولا شأن له ولا قيمة وأنه مهدد دائها بالقتل والتشريد واحتلال مرعاه ونهب عشبه، ومهدد بأية لحظة بأن تقع فوق رأسه قذيفة تمزقه إلى أشلاء متناثرة من غير أن ينهق عليه أحد في هذا العالم، فالقذائف لا تفرق بين بني البشر وبين بني الحمير.. راح يندب حظه العاثر لأنه ولد في إحدى الدول الصغيرة، وليس له خيار في ذلك، وهي دول مستضعفة كتب عليها أن تبقى في نضال دائم للمحافظة على الحياة والحرية، ومهددة دائها من قِبَل القوي المستعمر صاحب البطن الكبير الذي يريد أن يأكل كل شيء وحده، وأن يكون هو السيد الأوحد..

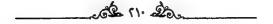
تحسَّر لأنه لم يولد في إحدى الدول الغنية القوية، فإخوانه الحمير هناك آمنون مطمئنون ليس لديهم همُّ كفاح ولا نضال

من أجل الحياة والحرية والكرامة المنهوبة، بل لهم جمعية خاصة تهتم بشؤونهم وتدعو للرفق بهم وتدافع عنهم وترعاهم، وهم يعيشون عيشًا كريمًا يليق بهم كحمير، بل ربها خامرت هؤلاء الحمير بعض الهواجس أحيانًا في توسيع رقعة مراعيهم على حساب مراعي العالم الثالث عشر..

أرقه هذا التفكير وعكّر مزاجه، وتمنى لو أنه لم يفكر، ولم يجهد نفسه وعقله فيه.. لكن ما سرَّى عنه قليلًا أنه ليس حير العراق وحدهم الذين يعانون بل هناك إخوانه الحمير في أفغانستان والصومال والسودان وفلسطين ولبنان وفي بقاع كثيرة من هذا العالم..

سمع نحنحة صاحبه أبي نواس، نهض عن الأرض وهيأ نفسه كي يمتطي صاحبه ظهره.. أطل من الحظيرة فرأى أحد الغرباء المعتدين يمتطي ظهر أبي نواس الذي يئن تحت حمله الثقيل وهو يقول:

- لابد أنني سألقي بك عن ظهري يومًا أيها الغريب المحتل، وسأرفسك بكلتا قدمي، وسأعود حرًا كما ولدت!..



غلب أبناء عشيرة أبي نواس كانوا ينظرون بعيون ميتة إلى ما حل بابن عشيرتهم..

إزاء هـذا المنظر نهق الحمار نهيقًا متواصلًا وعاليًا، عنى به شيئًا ما، وعاد ليمرغ نفسه بتراب الحظيرة..



۳۲- **دموع قمر** کیا

_ ألو.. هيام !..

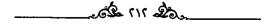
وغاص الصوت إلى الأعماق، انتحر قبل أن يصل إلى الشفاه..

_من؟.. من؟.. من المتكلم؟..

صوت نحيب يقطع نياط القلب.. الكلمات الخرس سحينة تحاول أن تتحرر، أن تنطلق في الأثير راعدة مدوية، الدموع تنهمر غزيرة كأمطار نيسان، تسيل على الخدود كماء صُبّ على سطح زجاجي أملس..

- _ من المتكلم؟ . . أرجوك تكلمي . . من؟ . .
 - _هيام.. هيام.. أنا قمر..
- _ألو قمر ما بك؟.. أرجوك تكلمي.. ما بـك؟.. ماذا حصل؟.. هل حصل لك مكروه؟.. قمر.. قمر.. تكلمي!..
 - _لقد أعادوني لزوجي!..

صمت يشبه ظلام ليل دامس في كهف عميق الأغوار..



صمت وهدوء، يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة..

_أعادوك لزوجك.. أوه!.. أيتها المسكينة كم أرثي لحالك، ومن أرغمك على العودة؟..

- تسألين من أرغمني!.. ألا تعرفين؟.. إنها العائلة الكريمة.. الوالد والوالدة والأخوة الأعزاء الذين يخافون على ابنتهم وأختهم ويرعونها كالطفل الوليد.. إنهم يحبونني. آه يا هيام إنهم يحبونني كثيرًا أنا ابنتهم الوحيدة، يحبونني كها يحب الدب صاحبه.. أجل أنا الابنة الوحيدة المدللة.. عاطفة الأبوة والأمومة والرابطة الأخوية البارحة تجلت بأجل وأبهى صورها.. كيف لا وهم يعرفون مصلحتي أكثر مني وأنا ابنة الثلاثين عامًا، ويعيدونني إلى السجن الذي قضيت فيه سنين بجذبًا جافة أقاسي البؤس والحرمان والانتظار.. وما أصعب الانتظار!.. هل جربته يا هيام؟..

بدأت الحياة تدب في صوتها الذي راح يتفجر كبركان ثائر لا يبقي ولا يذر.. كانت ناقمة على كل شيء.. على أبيها، على أمها، على نفسها على أخوتها على ظروفها، تريد أن تهرب من كل شيء إلى اللاشيء، مع أن مطلبها في هذه الحياة بسيط

	2 2
--	------------

جدًا تريد فقط أن تحيا كإنسانة تُحاط بالمودة والحب، تريد أن تتنفس هواء الحرية ملء رئتيها.. لكن أتون الحرب الدائرة ورائحة الجشع والطمع كانت تزكم أنوف الجميع..

الزوج خليجي الجنسية، معطر برائحة النفط الزكية، يملك المال، يشتري به الأجساد التي يريد.. يتجول في سوق النخاسة، يتجول في سوق العبيد، ينتقي البضاعة، يقلبها، يتفحَّصها، هل هي صالحة لل...، يشتري، يدفع، يمتلك، يحمل في جيبه تصريحًا بأن هذه المرأة هي زوجته، ملكه الخاص يأتيها وقت يشاء..

هي قطعة أثاث جميلة أودعت منزلًا يشبه السجن الانفرادي مُلِئ بالوحدة والانتظار والفراغ القاتل.. تاقت للألفة الزوجية، تاقت للسكن، تاقت للمودة والرحمة.. لكن منزلها هذا كان بعيدًا كل البعد عن البيت الزوجي المتعارف عليه عند الجميع.. كان بيتًا لتفريغ غريزته الحيوانية فقط.. وما إن ينتهي من تفريغ هذه الشحنة خلال أيام قليلة حتى ينطلق إلى بلده، تاركًا قطعة الأثاث الجميلة تئن تحت وطأة الوحدة والفراغ والانتظار القاتل.. وكأن قطعة الأثاث هذه ليس لها

غلب، ليس لها أحاسيس، ليس لها مشاعر.. هل من المعقول أن تكون العاطفة قد انتزعت من قلبها؟.. هل انتحرت شفافية المرأة داخلها؟.. هل باتت بالفعل جادًا لا تحس ولا تشعر، لا تحب ولا تكره.. قطعة أثاث مرمية في زوايا النسيان، يكشف الغطاء عنها كل خسة أشهر أو ستة لليالي معدودات ثم يعود ليسدل عليها أشهرًا طوالًا طوالًا..

يومًا بعد يوم راح هذا الزوج المحترم ينسى أو يتناسى أن هناك قطعة أثاث جميلة مرمية في منزل يبعد آلاف الكيلو مترات، فأطال الغياب وأطال..

أكدت له العديد من المرات عبر الهاتف أن هذا التجاهل وهذا البعد إنها يطحنها يفتتها إلى أشلاء.. أكدت له أنها إنسانة لها عواطفها، لها مشاعرها، لها أحاسيسها ولا يمكن أن تعامل هكذا على أنها جماد لا يتغير ولا يتبدل.. نادته العديد من المرات قائلة:

- أريد رجلًا.. أريد زوجًا.. لاأستطيع أن أتحمل الحياة هذه هكذا وحدي.. لا أستطيع أن أعيش وحدي في غابة هذه

الحياة.. ألا تخاف أن أكون فريسة وحش من وحوش هذه الغابة؟.. أليس عندك نخوة؟.. ألا تغار على؟..

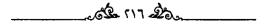
12?.. 12?..

تضيع الكلمات في الأثير وليس هناك من مجيب..

التقت العينان.. تحرك شيء ما في الداخل.. طيف ابتسامة ارتسم على طرفي الشفاه لجارٍ لها، شابٌ عَزَبٌ، وسيم المحيا، ابن عائلة معروفة، أصغر منها بسنتين..

راحت تحدث نفسها:

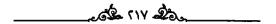
-آوما الذي جرى لي!.. كيف أبتسم له؟.. ولماذا؟.. يا الله!.. ما الذي جعل عينيي تتسمران على عينيه؟!.. ما هذا الخفقان الذي خالج قلبي؟!.. أوصالي كلها ترتعد، لم أعد أستطيع أن أسيطر على أعضائي!.. أحسُّ وكأن كل عضو من جسدي سيسافر باتجاه ما باحثًا عن شيء ما.. لا أدري ما كنهه.. أيكون البحث عن الصدر الدافئ؟.. عن الأمان؟.. عن الحب؟ عن العشرة.. عن الاستقرار؟ عن الحياة الكريمة التي تليق ببني البشر؟.. آه يا إلهي!.. ولكن كيف هذا وأنا امرأة متزوجة؟ متزوجة؟!.. متزوجة على الورق فقط، وهناك



, رقة في جيب ذاك الغائب تقول إنني زوج له.. لكن أمعقول أن أخون ولو بنظرة؟ وأنا التي حفظت في غيابه الطويل لمدة عامين كاملين وأكثر لم أر وجهه وأنا أعاني وأعاني..

صراع داخلي مرير بين المادة والروح، هل من الواجب عليها أن تبقى واقفة في محطة الانتظار؟.. تنظر بعينين بلهاوين باردتين إلى المجهول.. تنتظر قادمًا قد أضاع العنوان وركب قطارًا يتجه به إلى أفق بعيد مجهول.. إلى متى هذا الانتظار؟.. إلى متى تستطيع أن تكبت هذا الغليان الداخلي؟.. إلى متى تستطيع أن تدفن أنو ثتها في قبر مهجور؟.. وهي الجميلة التي يتمناها أغلب الرجال؟!..

إلى متى ستظل تائهة في بحر من النسيان؟.. إلى متى ستظل تسبح باتجاه المجهول؟.. قطار العمر يمر سريعًا ووريقات الأيام تتساقط صفراء شاحبة تنذر بقدوم الخريف.. خريف العمر الذي تخشاه كل امرأة.. وقبل أن يأتي هذا الخريف هل عليها أن تطرق بابًا آخر للحياة كي تعيش كما يليق لإنسان أن يعيش؟..

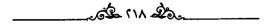


براكين ثائرة داخل هذه النفس الإنسانية الشفافة، ضمير يحاسب. يؤنب. يوجه. ولكن إلى متى هذا الانتظار؟.. آن لها أن لقطعة الأثباث أن تتحرك من مكانها المظلم.. آن لها أن تنطلق إلى النور.. إلى الشمس.. إلى الحياة لتعيش كها أراد لها الخالق..

تلاقت النظرات مرات ومرات، ودق القلبان يعزفان لحن الخلود.. لحن الحب، وكان اللقاء.. واللقاء.. وكانت في كل مرة تعود إلى نفسها مؤنبة زاجرة:

-كيف لي أن أجتمع به وأنا امرأة متزوجة؟.. متزوجة؟!.. آه متزوجة مع وقف التنفيذ!.. لكن ما فائدة هذا الحب الذي لا رجاء فيه بالوصال.. لقد زاد عذابي.. بعد أن كان عذابًا واحدًا أصبح عذابين، وهذا العذاب الأخير أمر وأدهى، فكيف لي أن أستطيع الاحتمال؟.. آه إنه يحاول أن يخفف عني، فيبذل كل ما عنده من رقة وشفافية لإسعادي، يحاول أن يكون الصدر الحاني الذي يحمل عني جميع آلامي وأحزاني، وأخيرًا سمعته يقول بصوت جاد كل الجدية:

ـ لماذا لا تسعين إلى الطلاق؟..



_آه.. ماذا؟..

_ أقول لماذا لا تسعين إلى الطلاق، ونكون زوجين شرعيين على سنة الله ورسوله؟..

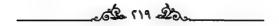
_آه كم أتمنى ذلك!..

_لقد مضى على غياب زوجك سنتين كاملتين، وبإمكانك أن ترفعي دعوى تفريق، ومن المؤكد أنك ستربحينها.. وأنا سأكون بجانبك، واقفًا معك حتى تحصلي على حريتك المفقودة.. حينئذ يا حبيبتي سنكون إن شاء الله أسعد زوجين في هذا العالم..

_لكنك أصغر مني سنًا بعدد من السنين، وأنت شاب عَرْب لم تخض غهار زواج بعد، وأنا امرأة متزوجة، فها هو موقف عائلتك؟..

ما دام هذا الحب الصافي النظيف قد جمع بين قلبينا، فلن تكون هناك عوائق إن شاء الله..

كان لهم ما أرادا، فقد رفعت دعوى تفريق وربحت الدعوى وصدر الحكم لصالحها..



أخيرًا فتح باب القفص وخرجت السجينة ترتدي رداء الحرية الذي طالما افتقدته.. راحت تقفز على الأرض قفزًا، تريد أن تركض.. أن تلعب.. أن تطير إلى السهاء.. أن تقف في النور.. أن تقرأ الفرحة في كل الوجوه شاعرة أن العالم بأجمعه يشاركها فرحتها.. تريد أن تتلقى التهاني من الجميع وهم يباركون خروجها من السبجن لتوها.. تريد أن تضحك.. أن تبكي من الفرح، بل إنها لا تدري ماذا تفعل، فقد كانت الفرحة أكبر من أن يسعها قلبها المرهق من الأسر.. فانتابتها موجة ضحك هستيرية لفتت إليها جميع الأنظار.. لكنها لم تبال فالكل حسب تصورها يشاركها فرحتها، يبارك بنظراته خلاصها من الأسر..

تأبطت ذراعه بنشوة وفرح، وراحا يمنيان النفس باللقاء تحت سقف واحد ويعدان العدة لإنشاء بيت الزوجية الجديد..

هـذا الخبر كان له وقع الصاعقة على أهلها، فكيف لها أن ترفع دعوى وتتخلص من زوجها؟.. رغم أنه يرسـل لها

11 Do	2 22
-------	-------------

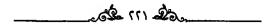
صروفها ولم يتركها في حاجة إلى شيء على حد قولهم.. فهي تأكل ما تريد وتلبس ما تريد، فهاذا تريد غير ذلك؟!..

سألوا أنفسهم ماذا تريد غير ذلك لكنهم لم يجيبوا.. وتعاموا عن مقولة (ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان)، اتخذوا المواقف وهاجموها وحاربوها حربًا لا هوادة فيها، ثم راحوا يترددون في قبول الخطيب الجديد الذي يصغر ابنتهم بعدد من السنين وخاصة بعد أن علما بتردي وضعه المالي.. فكيف لهم أن يتركوا صاحب الأموال ويرضوا بهذا الإنسان العادي جدًا؟!..

في هذه الفترة وصل من الخليج القطار التائه، حاملًا النزوج المطلق ليحط رحله في بيت أهلها.. استقبله الجميع بصدر رحب، هشوا وبشوا لقدومه وخاصة أنه محمل بالهدايا والعطايا..

حين سأل عن زوجته، حاولوا إدخالها، لكنها رفضت الدخول وقالت:

- هو غريب عني الآن ولا تجمعني به أية صلة !..



رفضت الدخول مرارًا وتكرارًا، لكنهم في النهاية أجبروها على الدخول والدموع تجري على خديها فجلست حزينة كسيرة مهيضة الجناح لا تنبس ببنت شفة..

قالت الأم محاولة تلطيف الجو:

- _ أبو جلال.. ضع يدك بيد عمك..
 - ـ لاذا؟!..
- _ضع يدك بيد عمك كما أقول لك!..

مد العم يده ومد أبو جلال يده.. قالت الأم لزوجها قل لأبي جلال:

- زوجتك ابنتي على سنة الله ورسوله!..

قال الأب بيلاهة:

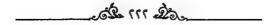
ـزوجتك ابنتي على سنة الله ورسوله!..

قالت الأم لأبي جلال:

- قل له قبلت الزواج من ابنتك!..

ضحك أبو جلال وقال:

- كيف ذلك وهل تريدون أن تزوجوني زوجتي مرة ثانية؟!..



الأم:

- قل له كما أقول لك وخذ زوجتك وانصرف!..

قال:

- قبلت!.. وساق غنمته أمامه وانصرف بها إلى مخدعه ودموعها ما زالت تنهمر على خديها، فلم يزعج نفسه ويسألها عن سبب هذه الدموع.. وهي تقول له:

- إنني لست زوجتك الآن، فقد حصلت على الطلاق، وهاهو قرار الحكم.. حرام عليك أن تقترب مني الآن.. لكن آذانه قد أصابها الصمم، فأمضى ليلة حيوانية بحتة ليس فيها من الإنسانية شيء..

_ألو قمر قلبي معك يا حبيبتي.. ماذا ستفعلين الآن؟..

_آه يا صديقتي.. ما سأفعله الآن هو التالي: سأبعد عن هذا الوحش الهائج مباشرة وسألتجئ إلى خطيبي فهو بانتظاري الآن في المحكمة لنعقد قراننا وسأتزوجه رغمًا عن الجميع، ولن تكون هناك دموع قهر ومذلة فلن أباع وأشترى بعد اليوم.. إلى اللقاء يا هيام، سأتصل بك فيها بعد وأخبرك بكل جديد.. إلى اللقاء!..

 ۲۲۳	20	_
 111	ake),	_

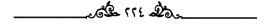
۳۳- ریاضی ههای

يافطة كبيرة علقت على بناء كتب عليها (نادي الأبطال الرياضي).. سيارة ذات لوحة خضراء كتب عليها (الجيش) وقفت في منتصف الطريق، أمام باب النادي، ترجل منها عنصران، ركضا مسرعين يفتحان الباب لرجل في بداية العقد الخامس من عمره، نزل من السيارة، مشى بتؤدة وكأنه يحمل جبلين على منكبيه، بعد بضع خطوات التفت إلى الوراء مقطبًا:

- ـ هات الشنطة يا حيوان!..
 - _حاضر سيدي!..
- ـ وين بوط الرياضة يا حيوان أنت الثاني؟ !..
 - ـ هون هون سيدي!..

وينطلقان خلفه كخادمين مقهورين، وهما يتمنيان في قرارة نفسيهما لو أن قنبلة ذرية تسقط فوق رأسه لتريحهما منه!..

هـو يظـن أن السـيد والده قد خلـف له هؤلاء الشـباب الذيـن جـاؤوا ليخدموا الوطن، هـم عبارة عن عبيـد خُلِقوا لكي يخدموه..



يتأملان نظراته، حركاته، لفتاته، هل سيصدر أي أمر؟ إنها لا يستطيعان أن يتأخرا في تنفيذ ما يطلب منهما - المعلم - وإلا.. وإلا..

يدخل من باب النادي، يمشي كطاووس مزهو بريشه، ينظر يمنة ويسرة نظرات باردة تنم عن الملل أوالتعالي، يتحرك العنصر ان بسرعة خوفًا من أنه يريد أن يصدر أمرًا ويفوتهما سماعه، ينظر إلى الأمام، يتابع مشيته، يدخل بهو النادي، يبتسم لموظف مكتب الدخول ابتسامة صفراء باهتة، يمشي باتجاه المشلح كي يخلع ثيابه العسكرية ويرتدي ثياب الرياضة...

-افتح الخزانة يا حيوان، خذ السترة علقها في الخزانة، انتبه للرتب أن (تتجعلك).. ولك يا حيوان علقها كويس!..

ـ حاضر .. حاضر سيدي ..

_علق البنطال.. خذ البوظ.. هات البيجاما.. هات المشد.. هات بوط الرياضة.. العمى في عيونكن العمى كل شغلة لازم قلكن هات.. هات؟..، ما بتفهموا تتصرفوا

|--|

لوحدكسن؟.. وقّف إنت هون قمدام الخزانة، لاتتحرك ولا حركة حتى ارجع.. وإنت التاني الحقني..تعال..

دخل إلى صالة الألعاب الرياضية وراح يتنقل من جهاز إلى آخر وكأنه نحلة تتنقل من زهرة إلى زهرة.. ساعة كاملة في التجوال بين الأجهزة ولم تنزل منه قطرة عرق واحدة، بينها العنصر المرافق كان يسبح في عرقه..

المدرب:

ـ أرى يا سيدي بعد هذه الفترة الطويلة من التدريب لم يتحسن جسمك، ولم يصبح شكله رياضيًا؟!..

- الحق على هذا الحيوان اللي معي ... كل ما بدي أتمرن أي تمرين بيقلي: عنك يا سيدي لا تحمل شيء أنا بحملهن عنك، قال من شان ما يعذبني.. قال !..



۳۶- شجرة التيـن حگ

في شرفة منزله المطلة على حديقة عامة، في منطقة المزة، جلسنا نتجاذب أطراف الحديث، لاحظت وجومه وشرود ذهنه، ونحن نرتشف الشاي بكؤوس كبيرة كالتي يشرب بها الأخوة المصريون ونستعملها نحن في دمشق لشرب الماء،قلت مداعبًا:

_كأس الشاي هذا يكفي لاغتسال نفر يعمل في منجم فحم.

بابتسامة باهتة، ونظرات زائغة أجاب ببرود:

ـ تنوعت الكؤوس والشاى واحد...

منجي بو حمزة، إنسان يدخل قلبك دون استئذان، ولو كنت تراه للمرة الأولى، حلو المعشر، سريع البديهة، تحس بأن عينيه تشتعلان ذكاءً وفطنة، واللهجة التونسية تمتطي صهوات حروف كلماته فتضفي على حديثه نوعًا من السلاسة، رغم أنه في بعض الأحيان يحاول التكلم باللهجة السورية، فيكون

|--|--|

لقاح اللهجتين لهجة ثالثة تنبهر لها الأذن، وتطرب لها النفس، فلا يسعك وأنت تستمع له، إلا أن تبتسم في وجهه ابتسامة الرضا.

_أولا: الحمد لله على عودتك إلينا بالسلامة، ثانيًا: إنني أرى اليوم في عينيك قلقًا لم أعهده من قبل!.. فما الذي يختبئ وراء الأكمة؟..

هناك شيء ما قد تبعثر... شيء ما قد اجتث من جذوره... وهل نستطيع يا صديقي أن نحيا بلا جذور؟..

ما هذه النغمة الحزينة التي تعزفها؟!.. وأنا الذي عهدتك تلون حياتك بألوان الفرح!..

_آه يا صاحبي... الحقيقة أنني قد ذهبت إلى تونس لكنني لم أجد تونس..

_ماذا؟!.. وهل تونس قافلة تتنقل في الصحراء، والالتقاء بها ضرب من الحظ؟!..

ـ تونس. محفورة في قلبي.. في روحي.. هي ذاكرتي هي طفولتي.. هي الأحرف الأولى التي درجت على لساني.. هي

صباي الذي ترعرع في... هي أنا في بساتينها وينابيعها هي معشوقتي في سهلها وجبلها وشجرها...

صمَتَ فجأة ثم أجال طرفه بين أشجار الحديقة المقابلة وكأنه يفتش عن شيء ما، حمل كأس الشاي ثم رشف منها رشفة كمن يتذوق الشاي لأول مرة في حياته.. ثم بادرني قائلًا:

_هل تعرف يا صاحبي بأن الإنسان مهم تقدمت به السن يبقى طفلًا؟..

قلت ضاحكًا:

ما أجمل أن نرى طف لًا في الخمسين أو الستين من عمره!..

ـ لا تضحك يا صاحبي فإنني مازلت أحمل هذا الطفل بين جوانحي، إنه ينتحب الآن ألا تسمع نحيبه؟.. ألم تقرأ آثار هذا النحيب على وجهي؟.. إن وجه الطفل مرآة لما يدور داخل شغاف نفسه!..

ـ لاحظت وجومك وشرودك وتبلبل أفكارك، إذ إنك كنت تحدثني عن تونس وفجأة رحت تحدثني عن طفلك الذي يتربع بين جوانحك ولا أدري ما الرابط بينهما..

_صدقت... إن أفكاري مشوشة!.. وذلك بعد أن شُوّه الطفل الذي بداخلي.. أجل لقد شوهوه..

صمت فترة ليست بالقصيرة وهو ينظر داخل كأسه، وكأنه يستقري الغيب كقارئة الفنجان، رفع رأسه ونظر إلي نظرة من يريد أن يبوح بسر قد أثقل كاهله ثم بادرني قائلًا:

- أنا متأكد بأنك تفهمني جيدًا، ولن تسخر مني ... لذا فإنني سأفضي لك بمكنونات قلبي... آه يا صاحبي لقد قطعوا شجرة التين!..

- ـ شجرة تين؟!..
- أجل شجرة التين هذه، هي طفولتي وصباي.. هي ذاكرتي المحفورة في حنايا ذاتي.. هي جذوري الممتدة في تراب تونس، لا تستغرب إنها تعنى لي الكثير..
 - _شجرة التين؟!..
- ـ سأحاول أن أرسم لك الصورة قدر المستطاع فهذه الشجرة كانت تبرة الشجرة كانت كبيرة جدًا، ذات أغصان ملتفة عملاقة، تسدل ظلالها على مساحة كبيرة من الساحة، وعندما كنا صغارًا كنا نتسلقها بخفة

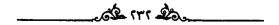
لسعادين، لاعبين، فرحين، مسرورين، ونساء القرية كن يرتدن ظلالها صباحًا بعد أن يذهب أزواجهن إلى أعمالهم فيقمن مجتمِعات بمساعدة بعضهن البعض في الأعمال المنزلية فهذه تجرش القمح على رحى قديمة، وتلك تنقى العدس، وأخرى تساعد جارتها في تقطيع البقدونس وتقشير البطاطا، وأخريات يثرثرن ويضحكن والسعادة تفوح من الجميع كما يفوح العبير من الورد، إضافة إلى مجموعةٍ من الدجاج تتنقل بينهن تلتقط الحب بمناقيرها غير خائفة ولا فزعة، وترى في الصورة قطة غافية على أحد الأغصان مسترخية على أنغام سيمفونية عصافير الـدوري التي تبدأ باكرًا وتُختتم عند غروب الشمس، وكلب باسط ذراعيه.. هرب إلى الظل من حر الشمس. هذا المنظر يستمر من الصباح حتى الظهيرة أما ما بعد العصر فكان حضن الشجرة الملاذ المحبب لرجال القرية، فتحت أغصانها الملتفة كانت العيون تتصافح والأرواح تتعانق والمحبة تسربل الجميع بردائها، وهكذا كان الجميع رجالًا ونساءً يبدون كعائلة واحدة بل كجسد واحد، هذا غيض من فيض مما كان يحصل تحت تلك الشجرة..

صمت فجأة ثم نظر إليَّ نظرة محاولًا أن يستطلع فيها إذا كانت أحاسيسه قد وصلت إلي كها يشعر بها بالضبط أم أنه قصر في نقل الصورة، لكنني بقيت صامتًا أحثه بنظراتي أن يستمر في رسم صورته.. بنظرات زائغة وكمن يروي حلمًا مزعجًا تابع قائلًا:

ـ اليوم... وبعد أن بترت ذاكرتي... عفوًا بعد أن بترت الشجرة... أتدري ماذا حل محلها؟!.. آه لقد وضع نصب حجري صلد أصم لا أدري إلى ماذا يرمز!.. لقد استبدلت الموت بالحياة!.. أما البيوت البسيطة التي كانت تحيط بالساحة فقد حلّت محلّها هي الأخرى أبنية طابقية لا يعرف فيها الجار جاره، وأصوات السيارات والدراجات النارية حلت محل عصافير الدوري التي هجرت المكان..

دمعة حرّى انهمرت رغمًا عنه، انتصبت واقفًا... ربتٌ على كتفه.. ثم قلت مواسيًا ومودعًا:

- ألا ليت البشرية تؤوب إلى بساطتها لكي يعيش الإنسان إنسانًا، ولتُزرع الملايين من أشـجار التين لتسـتظل الإنسانية بظلها الظليل..

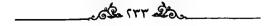


70- على الرصيف (او ساعة شيطان) الله

العاشرة صباحًا من أحد أيام شهر آب، حرارة الشمس تنبئ بنهار صيفي شديد الحرارة.. سُدَّت منافذ النسيم فبدا الجو خانقًا، رغم أن الصباح لم يحمل عصاه ويرحل بعد.. ثلة من الفتيان والشباب جلسوا على الرصيف يستظلون بظل عمود الكهرباء، لأنهم لم يجدوا شيئًا آخر يستظلون به.. عمود الكهرباء هذا يشبه مسلة مصرية قديمة، أو جذع شجرة حور سوداء بلا أغصان ولا أوراق، ظِلُ هذا العمود نحيلٌ كنحوله..

اصطفت هذه الثلة في ظل هذا العمود لتقي الرؤوس فقط من حرارة الشمس، أما الأجساد فلا مكان لها في هذا الظل النحيل، فراحت الشمس تعمل بها عملها..

العيون في المحاجر ترقب المارة، ترقب السيارات العابرة، تنشد القامات متأهبة للركض باتجاه أية سيارة تقف أو حتى تخفف من سرعتها فقط..



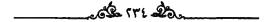
حمد يجيل نظره بين رفاقه الذين افترشوا هذا الرصيف، يهز رأسه بأسى ظاهر، يشعل سيجارة، يقول بصوت عال وكأنه يريد أن يسمع العالم أجمع:

الله يلعن أبو هالعيشة، الحيوانات تعيش عيشًا أفضل من عيشنا، وكل شيء متوفر لها، ونحن مطروحون على الرصيف ولا أحد ينظر إلينا وكأننا حيوانات جرب.. يا شباب أنتم تعرفون أنني درست وتعبت وتخرجت من الجامعة قسم الفلسفة.. ومع ذلك فإنني أجلس على الرصيف مثلكم وكأنك يا أبا زيد ما غزيت..

خلف.. شاب أسمر لوحته الشمس فزادت من سهاره، يعدل من جلسته لشعوره بخدر يسري في رجله من أثر الرصيف القاسي.. يكن خاصرة حمد بقبضة يده الخشنة قائلًا:

- قبل الحمد لله، البعض لا يستطيع أن يأتي إلى المدينة وقاعد بالقرية، ويحسدنا لأننا أتينا إلى العاصمة..

ــلك ا.. على ماذا يريد أن يحسدنا على هـذه القعدة على الرصيف؟ ا.. لك إ.. مؤخراتنا اهترأت من هـذه القعدة..



نظر إلى هذا الظل الظليل الذي قاعدين فيه!.. آه أين شجر قريتي؟.. أيسن.. أيسن ترابها المعطر بعرق أجدادنا؟.. هل تعرف أن التراب في القرية حنون وناعم؟.. ليس كمثل هذا الإسفلت والبلاط القاسي!.. آه كم لعبنا بذاك التراب ونحن أولادٌ صغار!.. كم جلسنا تحت ظل الأشجار وقت الغداء!.. هل تتذكرون يا شباب يوم جئنا خمسة أو ستة أنفار وجلسنا للغداء وكل منا فتح زوادته، وإذ الجميع قد جلبوا زيتونًا فقط، قطفنا البندورة من الحقل يومها وجلسنا للغداء.. آه ما أجمل تلك الأيام!.. ولا أخفيكم القول: نحن حمقى.. ماذا ألى بنا إلى هنا؟.. لنرتمي رمية الكلاب على هذه الأرصفة!..

ننتظر بفارغ الصبر من يأتي لننقل له سيارة رمل أو حصى أو مواد بناء أخرى إلى أحد الطوابق العليا، أو زبونًا يأتي ليهدم جدارًا أو ينقل أنقاضًا.. إننا يا رفاقي نستهلك أجسادنا لقاء دراهم معدودات، نتعامل مع الحصى والرمل والبلوك والسيراميك والإسمنت.. وكلها جمادات قاسية لاحياة فيها.. بينها هناك كنا نتعامل مع الحياة.. أجل مع الحياة، كنا نلقي الحبة في الأرض ونسقيها ونرعاها، كنا نشعر بنشوة غامرة ونحن

نرى الحياة تدب في الحبة وحين يبدأ البرعم يشق التراب متجهًا باتجاه النور.. الله ما أعظم الحياة!.. تتأمل هذا البرعم الصغير وهو ينمو ويكبر، فتعيش معه في طفولته، في صباه، في شبابه، وفي حصاده.. مسيرة عمر نعيشها مع الحبة..

البعض من هذه الثلة قد أثارته هذه الذكريات عن الأرض والنزرع فسافر بأفكاره إلى هناك حيث الأهل والصحب والولد، حيث الأرض والبقر والدجاج والأرانب، حيث شقائق النعمان الحمراء التي تزين حقول القمح الواسعة، حيث بتلات القطن البيضاء تمتطي أعالي الأغصان، فتبهج النفس وتسر الناظر..

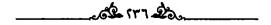
البعض الآخر ظل مستلقيًا على الرصيف يستمع إلى ما يدور من حديث بلا أي اكتراث..

خلف:

- إذا كانت هذه الحياة لا تعجبك فلهاذا لا ترجع إلى القرية؟..

حد:

- أريد أن أسألك سؤالًا..



خلف:

- اسأل!..

حمد:

- منذ كم يوم لم يدخل جيب أحدنا ليرة واحدة؟..

خلف:

- منذ خمسة أيام تقريبًا..

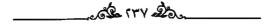
حمد:

- منذ خمسة أيام ونحن نغدو ونروح، نــزرع الرصيف بأجسادنا وكأننا قطعة منه.. ننتظر..

في هذه الأثناء توقفت سيارة بالقرب منهم .. جاء الفرج .. جاء الرزق .. هرول الجميع باتجاه السيارة، تجمعوا كخلية نحل على نافذة السيارة .. أصوات متداخلة:

- _ ماذا عندك؟..
- _ ماذا تريد أن تنقار؟..
 - _ما هو الشغل؟..

والبعض الآخر حاول أن يفتح أبواب السيارة الخلفية ويندس داخلها ليفوز بالعمل.. لكن صاحب السيارة صاح بنزق وضيق:



- هيه ماذا تريدون؟ . . ليس لدي عمل لكم إنها وقفت لأتكلم بالهاتف الجوال! . .

تراجع الجميع القهقرى وهم يشعرون بخيبة أمل كبيرة.. إذن إنه ليس بزبون.. وباب الرزق ما زال مقفلًا عاد الجميع إلى أماكنهم السابقة يظللون الرأس بظل العمود، وعاد حمد لتابعة حديثه:

- أترون هذه هي حياتنا وهذه خيبتنا، زرغنا على هذه الأرصفة الانتظار والأمل فحصدنا الخيبة، وهناك في القرية زرعوا الحب في التراب واليوم يحصدون.. إنه آب.. إنه وقت الحصاد.. لا بدلي من العودة.. لابد أن أعود!..

صوتان يعلوان، يقطعان على حمد حديثه:

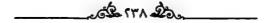
_ أبعد عني قليلًا.. كم أنت قليل الذوق!..

_إيه.. ماذا؟..

_إنك تدفعني خارج الظل!..

_أي ظل هذا؟.. أنا لم ألمك..

ـ بل لمستنى!..



ولكم، في وجهه لكمة قوية.. رد الآخر عليه بلكمة ماثلة، واشتبكت الأيدي وعلت الأصوات وانقسمت الثلة إلى مجموعتين، راح كل واحد منهم يكيل للآخر ما يستطيع من الضربات واللكهات.. شيء ما قد حدث بينهم، لعلها القشة التي قصمت ظهر البعير، فتفجر الملل.. تفجر الانتظار.. تفجّر الفراغ.. تفجر الفقر.. تفجّر الوجع..

الأصوات ما زالت تعلو، لغط كبير، احتشد الناس.. حاول البعض أن يستعمل السلاح الأبيض (الرفش والمعول).. لكن أصحاب الخير منعوا استعماله فيها بينهم..

بعد قليل كان الجميع في مخفر الشرطة يكتبون تعهدًا بألا يعتدي أحدهم على الآخر..

- _والله إنني أحبه ولا أعرف لماذا ضربته!..
 - -آه يجب أن أعود إلى القرية ..
 - _الله يلعن أبو الشيطان!..
 - _ساعة شيطان ومضت..
 - _ أرجو ألا يصل هذا النبأ إلى القرية . .
 - _هل حقًا ساعة شيطان ومضت؟!..

77- ف*ي الظــل* حڪي

لقاء حار، عناق طويل، يدكل واحد منهما تربت على ظهر الآخر.. الأول يلبس سروالا أسود فضفاضًا والآخر يلبس بنطالا أبيض ضيقًا يكاد يختلط بها تحته، ونظارات شمسية تحجب عينيه بالكامل.. كلمات تتدفق فتزيد من حرارة اللقاء والعناق.. صاحب السروال معاتبًا بدعابة:

- أين أنت يا رجل؟ . . منذ زمن بعيد لم نرك . .
 - _مشاغل.. الدنيا مشاغل.. يا صاحبي..

_أية مشاغل هذه التي تبعدك عناكل هذه السنوات فأنا منذ انتهاء دراستنا لم أعد أراك!..

- الظروف يا صديقي .. الظروف صعبة والوقت ضيق بل وضيق جدًا فالحياة دوامة ونحن نعيش هذه الدوامة بكل ذرة من كياننا، ولكن لم تقل لي كيف حالك أنت ؟ . .

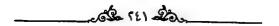
ـ كـما تـرى على أحسن حال.. صفاء ونقاء ولا وجود لتلـك الدوامـات التـي تتكلـم عنهـا، وفي وقتي متسـع كبير

|--|

. طالعاتي ولزياراتي، فوقتي منظم جدًا، فقد زرتك أكثر من أربع مرات، وكنتُ في كل مرة أرجع بخفي حنين فصديقي رجل الأعمال غير موجود باستمرار ومشغول دائهًا..

-أجل وقتي كله عمل وحركة.. أليس هذا أفضل من الفراغ الذي تعيشه هنا مع الأرض والزراعة والدواجن، أيليق بشاب مثقف مثلك أن يترك ركب الحضارة ليعيش عيشًا بدائيًا؟.. أاستطيع أن أسمي هذا هروبًا؟.. لماذا تبتسم؟..

ابتسم يا صديقي لأنك غير متفهم لمعنى الحياة .. أجل يا صديقي لقداقتلعك طوفان الحضارة التي تدعيها من جذورك وألقى بك في عبابه ، فأنت في جوف الحضارة كما تدعي ولكن اعل برأسك فوق هذا الخضم الذي يجرفك ، والذي يبتلعك ، لترى زيف تلك الحضارة المدعاة ، لترى أن هذا البريق الأخاذ الذي شدك وخلب لبك ، إنها هو لمعان زائف ، لعان نحاس وليس لمعان ذهب .. هل سنظل وقوفًا؟ .. تعال نجلس تحت تلك الشجرة فإن ظلها الوارف يغري الانسان بأن يطيل الجلوس تحتها ، ويتأمل خيوط الشمس المتسربة من بين أوراقها .. إنها جلسة شاعرية .. آه .. آسف إن بنطالك بين أوراقها .. إنها جلسة شاعرية .. آه .. آسف إن بنطالك

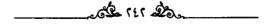


الأبيض الضيق لا يسمح لك بأن تجلس على الأرض، ألم أقل لك إن هذه الحضارة قد ابتلعتك، بل لقد قيدتك بسلسلة من ذهب، وتقودك وأنت مغمض العينين.. اجلس.. اجلس يا صاحبي على هذا الجذع المقطوع فإنه ككرسي.. وتعال لنقارن بين عالمي الذي تقول عنه إنه بدائي وبين عالمك المتحضر!..

_قارن يا فيلسوف عصرك.. قارن.. يبدو أن الجو هنا قد منحك فلسفة خاصة..

- لا تسخريا صديقي فالجوالذي تتكلم عنه ساخرًا يحمل في ذرات هوائه رائحة هذه التربة الزكية.. يحمل رائحة هذه الأزاهير المنتشرة هنا وهناك، الهواء هنايا صديقي المتحضر نقي صحي نظيف، والأشجار هنا تتراقص على نغات حفيف أوراقها، البلابل تصدح بها وهبها الله من صوت شحي، والفراش الحالم يتهادى منتشيًا بين الأزهار، والنحل تراه صاعدًا هابطًا يجمع رزقه من رحيق الأزهار.. أليس هذا سحر بالله عليك؟..

_شاعرية حالمة لا محل لها في عصرنا هذا، فعصرنا عصر الجد والنشاط والعمل..



دعنا نكمل الآن المقارنة وبعدها سأرد على كلامك هذا..

_أكمل يا سيدي أكمل!..

_الجو عندك في مدينتك المتحضرة جو يعطره الدخان وهباب الفحم، فدخان السيارات والمصانع كله يصب في ر ثتك المسكينتين اللتين تتغذيان مذا الهواء المسموم، فلو أنك مشيتَ عشر دقائق في شارع من شوارع مدينتك وبعدها حاولت أن تنظف أنفك الشامخ هذا، فلا بد أنك واجد منجيًا من هباب الفحم داخله، إن لم تتاجر بهذا الهباب وتبيعه وتبعد عنه فإنه سوف يتاجر بحياتك ويبيعك بثمن بخس.. أما الشمس التي اختبأت منها يا صاحبي بين الجدران، فقد حُرِمْتَ بابتعادك عنها خيرًا كثيرًا أنت عارف به بالطبع، لاحظ أن عينيك لم تقدرا على مواجهة نور الشمس، فأخذتِ النظارة الشمسية ربع وجهك،لقد ألفت عيناك العتمة.. وما أجل النور والعيش به.. أما هذه الأصوات التي تسمعها هنا من حفيف أوراق الشجر إلى زقزقة عصافير إلى أزيز نحلة إلى رفيف فراشة، فالبديل عنها عندكم أصوات سيارات ..



وجلبة وضجيج وأصوات آلات لاترحم وموسيقي صاخبة تثير الأعصاب أكثر من أن تريحها، وفي هـ ذا الجو الصاخب تجرون جريًا لاهثًا لجمع الثروة وتحقيق أرباح مادية، لتتباهوا وتتفاخروا، ناسين أن وريقات عمركم تذبل وريقة.. وريقة.. وتسقط منكم الأيام يومًا بعديوم، فلن ينفعكم عندها كل ما جمعتم، المهم يا صديقي أن تعرف كيف تعيش عمرك، لا كيف تصرفه. . أعود الأعلق على كالمك بأن عصرنا هذا عصر جد ونشاط وعمل.. أنا معك بهذا الكلام، وهاأنذا أعمل هنا في أرضي بجد ونشاط كها ترى ولكن لا يعني هذا أن ألغي الأحاسيس الرقيقة التي يحملها الإنسان بين ضلوعه ولاأن ألغىي الإنسان داخلي، فأتهافت تهافتكم المادي هذا فيضيع الإنسان ويترعرع الغول..

مهلًا يا صديقي ما هذه الحماسة؟.. أتراني جثت أستمع إلى محاضرة النقاش بها غير مسموح به؟..

ــ لا.. بإمكانـك أن تناقـش وتطـرح كل مــا يجــول في فكرك..



إنك ناسٍ يا صديقي كل ما قدمته و تقدمه هذه الحضارة من مبتكرات تخدم الإنسان وتحقق له عيشًا كريمًا أفضل وتؤمن له سبل الرفاهية والعيش الرغد..

- أنا لستُ ضد الحضارة التي تخدم الإنسان وإنها أنا ضد الأسلوب الذي نأخذ به هذه الحضارة أفلا ترى معي أننا نتمسك بقشور هذه الحضارة ناسين أن هناك لُبَّا.. أن هناك جوهرًا.. يجدر بنا أن نعرفه ونعمل به لنقول عن أنفسنا إننا نسير في الركب الحضاري؟!.. ألا ترى أن تمسكنا بهذه القشور الحضارية يضرنا أكثر مما ينفعنا بكثير؟..

- الحقيقة أننا ما زلنا في بدايات طريق الحضارة.. والحق معك، من المفروض أن يلتفت الإنسان إلى الجوهر، من غير أن يُعنَى بالسفاسف والقشور..

_قلنا يا صديقي إننا مع الحضارة التي تسعى لإسعاد الإنسان ورفاهيته، ولكن ألا ترى أن هذه الحضارة تعمر وتبني بيد لتعود وتخرب وتهدم باليد الأخرى؟..

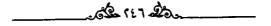
		0 : -	
,	•	_ دیف:	



- ألا ترى إلى ذلك التسابق في التسلح؟.. ألم تسمع عن عن القنابل الذرية والهدروجينية والنووية، ألم تسمع عن الصواريخ؟.. ألم تسمع عن مئات الأطنان من المتفجرات المعدة لكل فرد يعيش على سطح الكرة الأرضية؟.. ألم تسمع عن الأسلحة الحياوية؟.. ألم تسمع؟.. ألم أيدت كل هذه الأسلحة (الترفيهية)؟!.. بالي عفاريت.. لمن أعِدّت كل هذه الأسلحة (الترفيهية)؟!.. أعدت لإبادة الإنسان، لإفنائه، ألا ترى أن الإنسان في هذه الخضارة يفعل كالسمك: الكبير منه يأكل الصغير؟.. فهل الخضارة يفعل كالسمك: الكبير منه يأكل الصغير؟.. فهل تسمي هذا حضارة؟..

- آلة الحرب يا صديقي كانت في السابق بدائية ولكنها موجودة ولا ذنب للحضارة بذلك ولقد تطورت بتطور العلم.. فهل تريد سيادتك أن نستكشف الفضاء والعالم الخارجي بصواريخ ومركبات غاية في التطور وتكون وسائل الدفاع والحرب هنا على الأرض بدائية؟ أهذا معقول؟..

ـ لا .. لا .. يما صاحبي غير معقول إطلاقًا، فطريقة قتل الإنسان وإبادته من الواجب هي الأخرى أن تتطور وتُصْرف



لها أعلى الميزانيات سعيًا وراء التوازن العسكري.. وهناك المثات بل الألوف تموت يوميًا من الجوع في أفريقيا وفي بقاع شتى من العالم!.. يا له من عدل حضاري!.. ما بك أراك تفرك جبينك هل هربت الأفكار من رأسك؟..

ـ لا.. إنني مُنْصِت لك، أكمل، أفرغ شحنتك.. لماذا تضحك؟..

- أضحك لكلمتك (أفرغ شحنتك).. وهل اعتبرت كلامي هذا كله عبارة عن شحنة سأفرغها وينتهي الأمر.. لا يا صديقي العزيز فالذي تقول عنه إنه شحنة معشّش في كل زاوية من زوايا نفسي، وإلا لما كنتُ أفسد عليك زيارتك في للاستمتاع بالطبيعة وهدوئها وأزيد دوامتك التي تعيشها دوامة أخرى من أجل شحنة.. آه.. نسيت أن أصب لك الشاي فإنه ما زال ساخنًا.. تفضل!..

_ إنه شاي لذيذ جدًا لم أذق مثله منذ زمن طويل ...

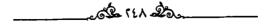
_إنه مغلي على الجمر!..

_إنه بالفعل رائع!.. لماذا تحملق بالأرض هكذا؟..

اتلاحظ أن شايًا مغليًا على الجمر قد لفت نظرك؟ كيف بك وأنت تنتشل رغيف خبز القمح من التنور مباشرة ومقلاة من الباذنجان المقطوف من شتلته الأم مباشرة، وسلطة خضارها أيضًا طازجة. أنا متأكد أنك ستستمتع بهذا النوع من الطعام أكثر من (الحمبر غر والسكالوب والسباغيتي والكورن فليكس)، بل صحن مجدَّرة يا صاحبي وبصلة تهرسها بقبضة يدك وأنت جالس على بساط الأرض الأخضر أهنأ ألف مرة من جلوسك إلى طاولة السفرة. والشوكة والسكين بيدك، وأطباق عليها عملوءة بأنواع الطعام. أول ما تحتاج إليه قبل وأطباق عليها عملوءة بأنواع الطعام. أول ما تحتاج إليه قبل تناوله هو أن تترجمه إلى العربية أولًا.

-أجل يا صاحبي لقد افتقدنا البساطة ويا للأسف، وامتلأت تلافيف مخنا بتعقيدات لا عدلها ولا حصر.. نسينا مأكولاتنا الشعبية (الكشك والبرغل ببندورة والحراء بإصبعو والست زبئي والفتوش والتبولة).. الواقع يتوق الإنسان إلى تلك المأكولات البسيطة كثيرًا..

- الأهم من ذلك أنه بضيعان البساطة ونمو التعقيد والتسابق المادي ترعرع خول دمر النفوس، ترعرع حقد،



مت ضغينة، فشت كراهية.. أين الحب يا صاحبي الذي كان يلم شمل النفوس؟.. أين الحب الذي كنا نعيشه بكل ذرة من كياننا ويدفعنا نحو الخير والتآلف والسلام.. هل تعلم أنه عندما كان يذهب أي شخص من هذه القرية إلى المدينة ويغيب حتى ساعة متأخرة من الليل تهب القرية بأكملها لتفتش عنه.. لقد كانوا لا يهنأ لهم عيش ولا يغمض لهم جفن حتى يجدوه.. أما اليوم وعبر هذا الخضم الحضاري يضيع الأخ، يضيع الأب، تضيع الأخت، تضيع الأم، يضيع الإنسان.. وليس هناك من يقلق أو يهتم.. فلكل مشاغل وهموم خاصة تجرفه بعيدًا..

هل سنظل نتكلم ونتكلم.. قم، قم يا صاحبي واقطف قليلًا من الباذنجان الطازج، وأنا سأشعل الحطب وإلى.. إلى بالمقلاة ولا تنس خبز التنور!..



۳۷- **في عمر الزهو**ر ڪڪڪ

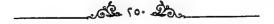
رمقني بنظرة بريثة طفولية، ملؤها الاستعطاف.. حرَّك فرشاته بين يديه حركات حاول أن تكون سريعة ليظهر براعته، فقرَّعَتِ الصندوقَ الخشبي الموجود أمامه، فصدر عنها صوت وكأنه دقات قلب مضطرب النبضات، أتعبه الشقاء المبكر، وانفتحت شفتاه الصغيرتان فوقعت على مسامعي كلمات لم تكتمل سلامة نطقها بعد:

- بويا.. بويا!..

تسمَّرت قدماي على بلاط الرصيف الموحل، حاولت انتزاعها ببطء والمضي في طريقي لكن براءة طفولته جعلتني أقف متأملًا ذلك الوجه الطفولي البريء الذي خط فيه الشقاء المبكر حزنًا داخليًا مبهاً.. انتزعت قدميَّ بصعوبة وسرت نحوه..:

- اتفضل يا أستاذ بفرنك بفرنكين بقد ما تريد!..

وضعت قدمي على صندوقه الخشبي الصغير وأنا أتامله مليًا من ذروة رأسه إلى أخص قدميه..



راعني فيه شحوب وجهه واصفرار عينيه واختضاب يديه الصغيرتين بالسواد ناهيك عن النوافذ المفتوحة في ثيابه لتطل منها أجزاء جسمه البضة وتصارع البرد القارس.. دفعني فضولي للتحدث اليه:

قدیش عمرك عمو؟..

أجابني لاهتًا وهو منهمك في عمله:

- ست سنين..

- ألم تتعلم في المدرسة؟..

هز رأسه باتجاه الخلف علامة النفي..

- ولم لم تتعلم؟..

رفع حاجبيه الصغيرين نحو الأعلى:

- ما بعرف أبي قال لازم اشتغل..

ونقر على نهاية الحذاء علامة الانتهاء وانصرفت بخطًا متباطئة ولسان حالي يردد:

- فقر جهل مرض.. ثلاثة أشباح مخيفة..

سرت متاملًا الرصيف الذي أسير عليه فرأيت حشدًا من الزهور البرية، حشدًا من البراءة الطفولية تجلس على الرصيف لكثرتها، تضرب بأطراف فراشيها الصناديق الخشبية بأيد مخضبة بالسواد..

۳۸- مجبزا.. ينحني النخيل که

طعنت العفة في مكان عفتها.. اغتيلت الطفولة في مهدها.. اغتصبت الأنوثة.. ورميت الكهولة بها يقصم ظهرها.. ويفقدها حكمتها.. تحجرت الدموع في المآقي.. العيون شاخصة مذهولة، وصواريخ كروز وتوما هوك تفجّر الأرض نارًا.. طائرات بعيدة عن الرؤية بالعين المجردة تصب جام غضبها على أرض البراءة والحضارة، تشعل ليل بغداد وتزلزل أرضها، تدفن أطفالًا وشيوخًا ونساءً تحت الأنقاض..

آلة الحرب الحديثة ذات التكنولوجيا العالية التي اخترعها الانسان.. تبيد الإنسان!.. تقتله تمزقه إربًا إربًا، أشلاء متناثرة، تعانق تراب وطن يغتصب.. العيون تنظر والقلوب زرع فيها الحزن والهم والخوف والقلق..

صاح طفل بملء براءته:

- ما ذنبي كي أشوَّه، أن تقطع لي يد.. رجل.. أن تقلع لي عين.. آوِا.. ما ذنبي لم أقترف ذنبًا لم أؤذ أحدًا.. أنا

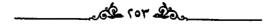
الطفن لة التي يتشدق الجميع بمحبتها وحمايتها ورعايتها.. إنني اليوم أداس.. أهان.. أقصف بأعتى الأسلحة المدمرة، بهذه الصواريخ وهذه القنابل.. بل وبها يدعونه أم القنابل، قد اخترع كل ذلك من أجل إسعادي ورعايتي!.. فيا لها من سعادة ويا لها من رعاية!..

تنادى الصبية:

- أحمد.. كاظم.. حنَّان.. هيا إلى الملجأ!..

الأرجل تسابق الريح، العيون يلفها فزع وحقد ظاهران، الأنفاس تتلاحق.. تدافع على باب الملجأ.. دوي انفجارات.. حم تتساقط من السماء كوابل المطر..

- اسمع!.. هذا الانفجار أقوى من سابقه..
 - _أجل يا كاظم إنها انفجارات مرعبة..
- ملاذا يقصفوننا، ماذا يريدون منا.. البلد بلدنا.. لماذا جاؤوا إلى أرضنا؟..
- _بالله عليك يا أحمد ألا تعرف لماذا جاؤوا؟.. ألم تسمع والدي حين قال إنهم جاؤوا لينهبوا ثرواتنا ويأخذوا نفطنا، ويزهقوا أرواحنا بعد أن يأخذوا اللقمة التي في فمنا؟!..



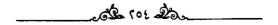
_هـل هم فقراء إلى هذا الحد، وليس عندهم طعام حتى جاؤوا ليأكلوا طعامنا؟..

شيخ أثقلت ظهره السنون وأخذت الحرب العراقية -الإيرانية إحدى ساقيه، وتركت ندوبًا ظاهرة في وجهه، نظر إلى الصبية وعلى محياه ابتسامة ساخرة قائلًا:

- إنهم ليسوا فقراء، لكنهم أدنياء يودون أن يأكلوا طعامهم وطعام غيرهم.. يا أولادي كل شيء في واقعنا عبث.. مسرحية تجري أحداثها الآن ورسم دخولها هو أرضنا وعرضنا ودماؤنا.. أجل يا أحبائي الصغار إننا ندفع ثمنًا غاليًا..

صمت لحظة ثم تابع:

- لا تؤاخذوني فحرارتي مرتفعة.. وأنا أهذي من أثر هذه الحمى اللعينة، ها أنذا طائر مقصوص الجناح لاأستطيع الطيران.. لا أستطيع الدفاع عن بلدي فأنا مربوط إلى أرض هذا الملجأ الرطب الكريه!.. اعتدت أن أقف في الشمس الساطعة كالطود الشامخ، أفتح صدري للريح، أهزأ بالرصاص والقنابل والطائرات والصواريخ، البلد غالي يا



أخائي.. والحرية.. آو.. الحرية!.. الحلم الكبير الذي عشش في نفوسنا.. وتقنا إلى ممارستها، لكننا لم نستطع أن نهارسها.. فالأفواه كانت مكممة والحرية كانت مبتورة الأطراف، جوفاء من الداخل.. أما اليوم فإنني أرى أن هذه الحرية قد ذبحت وتذبح بنعال الأمريكان على ضفاف دجلة والفرات.. آويا أبنائي إننا نفقد أغلى شيء.. إن الحرية تستل من جسدنا الآن كها تستل الروح.. العصفور في القفص و الأجنحة مقصوصة فأين الطيران؟!.. أين الأجنحة القوية التي ترفرف عاليًا في الساء؟!..

سقطت دمعة حارة من عين الشيخ ثم استدرك قائلًا وهو يمسحها بطرف كمه:

- لا تؤاخذوني يا أبنائي!.. فالمسنون يحبون الكلام كثيرًا أليس كذلك؟..

نظر الصبية إلى الشيخ وهم يرون وجهًا يتصب العرق منه وآثار الضيق بادية عليه..

یتابع الشیخ حدیثه و قد أُخذت الحمي منه كل مأخذ: مراه ۱۰۰ میمیم - التتار قادمون يأكلون.. ويحرقون الأخضر واليابس مكتبة بغداد.. تسبح في دجلة وتصبغ ماءه بلون الموت.. الخلافة العباسية بكل حضارتها وعلومها تذروها الرياح، ضعف بعد قوة وذل بعد سيادة.. الحجاج يرى في العراق رؤوسًا قد أينعت وقد حان قطافها..

يقطف منها و يقطف ويقطف.. على بن أبي طالب يُقتَل بضربة سيف مسموم بيد آثمة والحسين تنهال عليه السيوف من كل جانب ويسافر رأسه بعيدًا.. إلى دمشق تبكيها العيون وتضرب لأجلها الصدور.. طبول النصر دقت يا أحبائي، راياتنا رفرفت عاليًا في القادسية انتصب سعد بن أبي وقاص شامخًا يزف البشرى لأمير المؤمنين عمر..

العرق يتقاطر من ذقن الشيخ، وأجفانه شبه مطبقة، ومع ذلك أعصابه مشدودة وفي مخيلته فرسان وخيل وحلبة معركة. لم يعد يسمع صوت الانفجارات الهائلة التي تقع خارج الملجأ، ولا همهات الموجودين حوله وتضرعهم إلى الله. فصاح بصوت كأنه نبع من ساقه المبتورة وانطلق كالسهم ليخرج من فمه مدويًا:

- انتبهو القد عاد المغول.. لقد عاد التتار لقد عادوا بكل وحشيتهم ليخربوا.. ليدمروا.. ليقتلوا.. لينهبوا.. آو ستسقط بغداد!..

وفجأة انطفأ صوت الشيخ وراح في إغهاءة لفتت إليه أنظار الجميع.. تدافع الجمع ليروا ماذا حصل له.. أصوات..

- _طبيب!.. ألا يوجد طبيب؟!..
 - _حرارته مرتفعة جدًا..
 - _أعطني ماء.. أجل ماء..
- اغسل وجهه .. ضع كهادات على بطنه ..
- ـ هاك قطعة من قميصي بللها بالماء وضعها على بطنه..

ماء دجله يتقاطر من ذقن الشيخ.. عيون مثقلة الأجفان بدأت تتفتح رويدًا.. رويدًا.. حرك جسمه ببطء شديد بعد أن استعان بعكازه الخشبي.. نظر إلى الجمع المتحلق حوله وابتسم ابتسامة ساخرة وقال:

- أعرف أننا لم نعد نستطيع أن نجتمع يومًا على
شيء واحد، ولا حتى الآلام تستطيع أن تلمنا فكيف
de sos de

اجتمعتم؟!.. ثم أشاح بوجهه عن الجمع وهمهم بكلمات ليست مفهومة..

الأمريكان يحرثون رمال الصحراء العراقية بدباباتهم الثقيلة وآلاتهم الحديثة ينهبون الأرض نهبًا، يقصفون.. يعتلون.. أم قصر تقاوم، البصرة تحاصر، النجف وكربلاء تستغيثان.. الأرض الطاهرة المقدسة تدنس شبرًا شبرًا.. وأشجار النخيل القوية تنحني لعاصفة الشر مشدوهة، نهر دجلة بهائه الغزير وخيره يشق الأراضي العراقية متجهًا جنوبًا نحو البحر، والأمريكان بشرورهم يعاكسون التيار متجهين شهالًا باتجاه بغداد..

الجميع ضاقوا من وجودهم في هذا الملجأ فأخذ بعضهم يتجاذب أطراف الحديث، معبرين عما يجيش في صدورهم في تلك اللحظات..

الأول:

- آه لو كان عندنا غطاء جوي للقنا هؤلاء الغزاة درسًا لن ينسوه أبد الدهر..

|--|

الثانى:

- وأين الغطاء الجوي فطائراتنا قديمة.. وليس لها أي عمل في هذه الحرب..

الأول:

- إنهم يدخلون في الصحراء.. والصحراء أرض مكشوفة، كنا نستطيع اصطيادهم كالعصافير..

ثالث:

- ولماذا تريد أن تصطادهم كالعصافير، دعهم يدخلوا ويخلصونا من هذا الطاغية الذي كمم أفواهنا وكبت حرياتنا، وتنعم هو بقصوره الرئاسية، وتركنا نشتهي لقمة العيش..

الأول:

- أنت خائن!.. أتريد للأمريكان أن يحتلوا بلدنا.. ويدنسوا أرضنا وينهبوا ثرواتنا، ومهما يكن فالقائمون على النظام هم أولاد بلدنا..

الثالث:

- أي ثروات هذه التي تتكلم عنها والتي لم ننعم بها يومًا.. فسواء علينا إن بقيت في أيدي النظام أو ذهبت للأمريكان..

الثانى:

- يقول الأمريكيون بأنهم سيحرروننا من النظام ويجعلوننا بلدنا حرًا ديمقراطيًا ويرحلون.. فننعم نحن ببلدنا وثرواتنا..

ضحك الشيخ بسخرية وجسده يختلج كل جزء فيه، وعيناه ترمقانهم بنظرات حزينة، ثم صرخ بصوت عالي وكأنها يريد أن يسمع العالم كله:

- زيوان البلد ولا قمح الجلب!.. زيوان البلد ولا قمح الجلب!.. أتفهمون؟..

صمت الشيخ وساد هدوء في الملجا، ووجم الجميع وهم يفكرون..

أحدهم أدار مفتاح المذياع.. وزير الاعلام يعقد مؤتمرًا صحفيًا:

- الأفعى الملتوية التي تعبر الصحراء وتتقدم باتجاه بغداد سنقطعها إربًا إربًا.. هـ ولاء العلوج الأوغاد.. الأوباش.. سنجعلهم ينتحرون على أسوار بغداد.. بغداد ستكون مقبرتهم.. اليوم أحرقنا لهم عشر دبابات بطواقمها في القاطع

لأوسط، أسقطنا لهم طائرة أباتشي ببندقية صيد قديمة، أسقطها فلاح بسيط من أبناء شعبنا.. (تصفيق وصرخات فرح داخل الملجأ..).

- الأباتشي تسقط ببندقية صيد!..
 - _عشر دبابات بطواقمها!..
 - الحبل على الجرار!..
 - _مقبرتهم على أسوار بغداد!..

أصوات تعلو وتخفت.. الصبية الثلاثة: أحمد، وكاظم، وحنًان يتحلقون حول الشيخ وقد جلس جلسة الراوي..

- سأقص عليكم يا أبنائي حكاية غريبة قد لا تستسيغونها، إنها لا تتكلم عن الشاطر حسن ولا عن السندباد ولا عن ابن بطوطة ولا هي من حكايا ألف ليلة وليلة.. اسمعوا وستعرفون.. بل دعونا نسميها حكاية لعبة العسكر!..
- _كان يا ماكان وليس بقديم الزمان، في يوم من الأيام أصبح العالم كله قرية صغيرة وفي أحد الأحياء التي تتوسط هذه القرية كانت هناك بيوت متلاصقٌ بعضُها مع بعضٍ.. وكل بيت فيها يمتاز بغناه في ناحية من نواحي الحياة

أحدها كان يمتاز بصناعة السجاد العجمي المتاز، والثاني لديه أشجار نخيل باسقة مثمرة وزيت وفير يبيعه للأحياء الأخرى، وأما الثالث فكان بيتًا صغيرًا لبائع زيت، إذ إن هـ ذا البيت مبني على بحر من الزيت لـ ذا كان صاحبه من أغنى الأغنياء.. في شهال هذا الحي كان يوجد راعى دببة بيضاء مشهور بقوته وسطوته،كان يحاول دائيًا أن يمد جسور الصداقة مع بعض هذه البيوت الغنية علمه يحظى بشيء من ثرواتها.. وأحيانًا يكشر عـن أنيابه.. وعلى الطرف الآخر من النهر وبعيدًا عن هذا الحي كان هناك عسكرٌ رعاةً بقر، لهم بيت ملىء بالثروات، يعيشون عيشًا رغدًا هنيتًا.. ولهم من القوة والسطوة والجبروت ما يرهبون به الأحياء الأخرى.. كانوا يتسابقون في التسلح هم ورعاة الدببة، كلِّ يحاول بسط هيمنته على جزء من أجزاء القرية، فكانوا يشكلون كفتي ميزان ترجُح إحداهما أحيانًا، وتطيش أحيانًا أخرى.. رعاة البقر كانوا يحلمون بموطئ قدم في الحي الأوسط، لعديد من الأسباب فراحوا يسلحون أصدقاءهم صانعي السجاد كي يكونوا يدهم اليمني في هذا الحي.. فقويت شوكة صانعي السجاد حتى باتوا قوة لا يستهان بها، ويحسب لها

لف حساب.. وأما رعاة الدبية فراحوا يدعمون أصحاب أشجار النخيل، ويسلحونهم تسليحًا قويًا أيضًا.. وفي يوم من الأيام تغيرت الأحوال وانقلب صانعو السبجاد من أصدقاء لرعاة البقر إلى أعداء لهم.. فأُسْقِط في أيدي رعاة البقر فراحوا يفكرون في طريقة لإفناء هـذه القوة الموجودة بين يدي صانعي السجاد، فلجؤوا إلى أصحاب النخيل وراحوا يدعمونهم وأوغروا صدور الطرفين بعضهم على بعض حتى نشبت الحرب بينهما، وكانت حربًا طاحنة مدمرة، دامت ثماني سنوات تحطمت بها قوة الطرفين، ولم يكن هناك منتصر في هذه الحرب.. فراح رعاة البقر يفكرون ثانية بموضع قدم هذه المرة.. فقرروا ألا يدعموا أو يسلحوا أحدًا، وأنهم يجب أن يكونوا هم بأنفسهم في هذا الحي، وأهل الحي هم الذين يطلبونهم للقدوم.. كيف؟.. راحوا يلعبون لعبة ذكية خبيشة.. فأوعزوا لأصحاب النخيل أن بيت بائع الزيت هو جزء من بيتكم وهو حق لكم ضائع يجب أن تستردوه، فدخل أصحاب النخيل منزل جارهم بائع الزيت وعاثوا به فسادًا، واستولوا على كل شيء فيه.. وهنا صاح بائع الزيت مستنجدًا برعاة البقر الذين أتوا مسرعين متلهفين ليطردوا ما وصفوه

باللص الذي اجترأ على بيت جاره.. فقاموا بطرده، وأقاموا في بيت بائع الزيت يتنعمون بزيته.. في هذه الأثناء قُتِل أحد كبار رعاة الدببة فساءت حالهم، وانقلبت قوتهم إلى ضعف، وتمزق شملهم، فضاعت هيبتهم، وسقطت سطوتهم..

وبعد ذلك.. تنحنح الشيخ وعدّل من جلسته على أرض الملجأ الصلبة.. وعيون الصبية ترمقه بترقب وأصوات الانفجارات ما زالت تسمع داخل الملجأ.. صاح أحدهم ضجرًا:

- إلى متى ستستمر هذه الغارة، كاد الفجر أن يبزغ.. رد عليه رجل آخر:

ـ أن يموت الإنسان فوق الأرض خير من أن يموت تحت الأنقاض.. سأخرج من هذا الملجأ اللعين..

صوت انفجار يختلف عن سابقيه، تمسك الصبية بثوب الشيخ واقتربوا منه كثيرًا.. عاد الشيخ لمتابعة قصته وكأن شيئًا لم يحدث:

- وبعد ذلك فكر رعاة البقر لماذا لانتوسع ونحن القوة الوحيدة الضاربة التي لا يبارينا فيها أحد؟ .. فراحوا

يتحرشون بصاحب النخيل: أنت تزعجنا.. أنت تقلقنا.. أنت تقلقنا.. أنت تملك أسلحة مدمرة أنت تملك أسلحة مدمرة يجب أن تتخلص منها.. أفرغ جيوبك نريد أن نفتشك..

يستجيب صاحب النخيل ويستجيب ويتنازل ويتنازل.. يتسلل رعاة البقر إلى بيته يخربون.. ويقتلون.. ويُذِلّون.. لا يرعون إلّا ولا ذمة..

قذيفة مدوية تسقط فوق الملجأ.. تتبعثر الأجسام إلى أشلاء.. غبار يعمي البصر والبصيرة.. الشيخ ليس بحاجة إلى عكازه بعد اليوم.. يحاول الصبية الخروج من تحت الأنقاض والتخلص من ألسنة النيران.. ينجون.. تنشق عنهم الأرض ليكونوا أشجار نخيل لا تحنيها الرياح، والحرية في عيونهم جذوة تحت الرماد..

تسللت الأفعى..

فغرست أنيابها في قلب بغداد..

وأفرغت سمها كله..

فبغداد الآن بلا أسوار!..



۳۹- *مستر (جو)* کی

ستصل الطائرة في الساعة الخامسة يجب أن نكون في المطار الرابعة حتى يتسنى لنا الاستعداد لاستقباله..

- هل أنت متأكد أنه سيصل على هذه الرحلة؟..

_أجـل.. أجل.. لقد وصـل إلي فاكس بهذا الخصوص.. آ.. الرحلة رقـم ٤١٥ س.ت تاريخ ٢٠/ ٩/ ٨٥ القادمة من لندن..

- هل اتصلت بالمطار وتأكدت من ساعة الوصول؟..

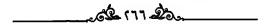
- نعم .. رئيس الحركة في المطار مهتم شخصيًا بهذا الموضوع، وقد اتصل بي هاتفيًا وأكد لي ساعة الوصول..

-إذن علينا أن نسرع لكى نرتب الأمور..

ـ لا تخف فالأمور شبه مرتبة، لقد أرسلت السائق منذ ساعتين بسياري المرسيدس 5008-، وهي جاهزة لتقله إلى البيت مباشرة، وسنكون برفقته في سياراتنا..

_أتعرف يا صديقى؟!..

_ها.. ماذا؟



_أخاف أن يتغير عليه الطقس، فانتقاله من إنكلترا بلاد الضباب والبرد القارس إلى الرياض حيث الشمس الحارقة والجو الملتهب. أخاف أن يؤثر عليه، أو يسبب له وعكة صحية..

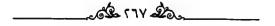
معك حق فهناك فارق كبير بين أجوائنا وأجواء إنكلترا التي اعتاد عليها.. ولكنه سينتقل مباشرة من الطائرة إلى السيارة، والسيارة مكيفة بصورة جيدة، كما أن مكان إقامته المهيأ مريح جدًا، ومكيف أيضًا بأفضل وسائل التكييف.

فعلى الأغلب لن نجعله يشعر بفارق كبير..

_إذن هيا بنا!..

وتنطلق السيارات مسرعة وأصوات أبواقها تدوي كسيارات النجدة، فتنتشر السيارات المارة في الشارع ذات اليمين وذات الشهال، وكأنها تحت تأثير دفع مغناطيسي..

الشمس حارقة، زفت الشارع يكاد أن يكون عجينة لينة تحت عجلات السيارات. المكيفات تزخ إلى داخل السيارات هواءً منعشًا، ينطلق صوت المغنية (ورده الجزائرية) من إحدى المسجلات وهي تصدح بأغنية (جيالك هوا).. يد تمتد إلى

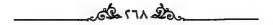


العقال، تعدل وضعه بصورة جيدة، تنظم الثنيات الثلاث الأمامية للشماغ، فتبدو وكأنها ثلاثة أنابيب نفط تنطلق من نقطة واحدة لتلامس الجبهة.. ينظر صاحبها إلى مرآة السيارة، يعجبه شكله، ينطلق بسرعة أكبر، يضع السواك في طرف فمه، يلامسه بطرف لسانه، ثم يبدأ بدعك أسنانه وكأن بين السواك وأسنانه ثأرًا قديرًا.. يشرد فكره إلى المستر (جو) الزائر الجديد، يكلم نفسه:

- عسى أن يعجبه السكن الجديد، أرجو أن يألفه بسرعة، سوف أؤمن له كل ما يحتاجه، لن أجعله يشعر بالغربة..

المطار بشكله الراقي وبنائه الحديث وأروقته الفسيحة محتلى، بحركة دائبة، العيون تتحرك متلهفة لرؤية شيء ما وكأن حدثًا تاريخيًا ما سيحدث ولن تراه العيون مرة ثانية.. تنشد القامات، تقف الأجساد على رؤوس الأصابع، ترتفع بعض الأيادي ملوحة، تنطلق ابتسامات، تتحرك رؤوس ذات اليمين وذات الشهال محاولة الرؤية..

ينطلق المدير العام للمطار باتجاه صالة كبيرة يتبعه رئيس الحركة وضابط الأمن، ومدير الجمارك وثلاثة من المرافقين،



و كبار مسؤولي المطار .. الابتسامات ترتسم على الوجوه، تتناثر كلمات تضفي على الجو نوعًا من المرح، يميل المدير العام على أذن أحدهم:

- بعد قليل سيصل مستر (جو)، ستنعم برؤيته..
 - _أرجو أن لاتكون الرحلة قد أتعبته..
 - _ هل أنت خائف عليه إلى هذه الدرجة؟
- _أجل.. أجل.. وخاصة خوفي عليه من أن لا يتحمل أجواءنا القاسية، مع أنني قمت بكل الاحتياطات لتأمين الجو الملائم..
- _سيتحمل يا صاحبي.. ولكن قل لي هل قامت السلطات المسؤولة بإرسال كل شهاداته..
- _ نعم ياصاحبي سيحضر المستر (جو) ومعه كل شهاداته..
- _حسنًا.. حسنًا.. لنسرع فعلى الأغلب أنه قد نزل الآن من الطائرة..

تسرع الأرجل في خطوها، تتطلع العيون، تهتز الأجساد، تدخل صالة كبيرة كتب عليها: الشحن الجوي.. ابتسامة عريضة.. صيحة عالية:

ـ جـو ا.. جو ا.. مسـتر (جـو).. آه هذا أنـت أخيرًا.. في الرياض!.. نايس توسي يو مستر (جو)!..

في قفص متوسط الحجم يقف المستر (جو)، وهو يلهث مادًا لسانه الأحمر دون خجل، يحملق بعينين مستغربتين لا تخلوان من الخوف من الوجوه السمر التي أحاطت به والأجسام التي ارتدت ثيابًا بيضاء مسدلة من الرقبة حتى أخص القدمين، وأغطية الرأس تلك بعضها بيضاء والأخرى حراء. لعله يسأل نفسه:

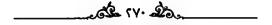
- هل أنا في مشفى أم مصح؟!..

كلمات تنساب حول القفص كموج البحر الهادىء، تبارك، تهنىء، تتمنى الإقامة السعيدة.. تطفو على السطح كلمات، تنصت لها الآذان:

ـهـل تدرون؟.. لقـد اخترته من بين عـشرات الكلاب هناك، انظر إلى وقفته.. إلى عينيه.. إلى جسـده.. إنه نمر.. نمر بجسد كلب..

أحدهم يسأل:

- بكم اشتريته؟



_آه يا صاحبي إنه لقطة!.. ابتعته بثمن بخس جدًا لم أكن أحلم أن أشتريه به.. تصور بعشرة آلاف ريال فقط!.. ولا تنسَ أنني قبل شرائه قد اطلعت على كل شهاداته الصحية الحاصل عليها من أرقى مصحات لندن.. وكذلك اطلعت على شجرة عائلته وبطاقة ميلاده، لم يفتني شيء بهذا الخصوص فأنا حريص كل الحرص أن يكون الكلب الذي سيسكن داري ابن عائلة أصيلة وذا صحة جيدة!..

أحدهم يعدل من وضع عقاله فوق رأسه، ويضرب بطرف غطاء الرأس إلى أعلى ليستقزا فوق يافوخه ويقول بخنة ظاهرة:

_على مايبدو أن مسترجو جائع ...

_أوه!.. الخادم الإنكليزي اللعين!.. لقد أعطيته طعامًا للكلب كلفني أكثر من خمسمئة جنيه إسترليني، ولكن على ما يبدو أن الخادم قد أكل طعام الكلب!..

_ماذا يأكل كلبك هذا حتى يأكل الخادم طعامه؟

على الأقل يا صديقي يحتاج هذا الكلب إلى كيلو ونصف من اللحم يوميًا ويجب أن يقدَّم له مطبوخًا وطازجًا، أو خس

دجاجات صغيرات تقدم إليه بعد تنظيفها جيدًا.. ويفضل أن تكون محمرة!..

يقف على بعد أمتار خادم فلبيني وسائق باكستاني يستمعان إلى الحوار الدائر، فيتلمظ الخادم ويبحلق السائق، ينظر أحدهما إلى الآخر، يتحاوران بلغة عربية ركيكة:

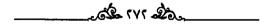
الخادم:

- صديق!.. أنا يعمل عندهم خمسة سنة.. هذا كلب يأكل أحسن مني.. أكل هو أكتر مني فلوس أنا وأنت في شهر..

-السائق: أنا ما في مشكلات.. أشتغل كلب عندهم.. يعطوني عشرة آلاف ريال.. أجلس جانب باب.. أقول: هَوْ!.. هَوْ.. كل نهار..

يركب المستر (جو) السيارة المرسيدس بعد أن فتح له الباب الخلفي للسيارة وجلس إلى النافذة اليمني منها..

انطلقت السيارة إلى حيث اللحم والدجاج والتكييف والسكن المريح.. نظرات السائق والخادم كانت تصلي جلد (جو) هذا بغيظ وحقد باديين..



۰٤٠ مڪتب ال

اشترى شادي مكتبًا هندسيًا في أرقى المناطق في البلد، وفرشه بأفضل وأغلى الفرش.. عندما جلس إلى المكتب اكتشف أنه يلزمه شهادة هندسة لمارسة هذه المهنة!!..



٤١- و.. استسلم إبليس حڪي

في بداية الألفية الثالثة للميلاد، تربع الكائن البشري على عرش الحضارة، متكبرًا متجبرًا مزهوًا بها أنجز، أرجله في الأرض وأنفه في السهاء.. وصاح بإبليس:

_هيه!.. أنت!.. إبليس!.. ما رأيك بإنجازاتي؟..

بنظرات كسيرة، وقلب مملوء بالغيظ، وإحساس بالهزيمة، أجاب بصوت خفيض هامس:

- لا أدري ماذا أقول.. في يوم من الأيام أبيتُ أن أسجد لك، فطرِدتُ بسببك من السموات العلى، وتوعدتك يومها بالغواية، وأن أجعلك تفسد في الأرض.. والواقع أنني بذلت قصارى جهدي على مر العصور والأزمان فكنتُ تارة أنجح، وتارة أخسر..

_ أنا أسـ ألك عن إنجازاتي في هـ ذا العصر وأنت تكلمني عن الصراع الأزلي الدائر بيني وبينك، أجبني بوضوح وبلا مواربة..

|--|

_سأكون صريحًا معك وسأضع لك النقاط على حروفها.. في هذا العصر بالذات اختلطت الأمور علي ولم أعد أعرف رأسي من رجليّ، لقد سلكتَ مسلكًا دعوتَه: العلم، ورحتَ تجاهد في سبيل الوصول إلى أعهاقه وأغواره، وبها أنني أعرف أن العلم يدعو إلى الخير، فكان على أن أسد ما أمكنني ذاك المسلك، وأدعو إلى الجهل. لكنني أعترف أنك قطعت شوطًا كبيرًا في بحر العلم واستخرجت الكثير من لآلته وكنوزه مما جعل عالم اليوم يختلف كليًا عن عالم الأمس..

الكاثن البشري، وبكل ما أوتي من عنجهية تبدت في نيرون وموسوليني وهتلر وبوش، قهقه بصلف قائلًا:

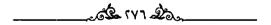
بدأت تعرف فضلي وتقدر إنجازاتي العلمية في المجالات كافة، وأنني جعلت الخير يعم المعمورة، والسعادة والرفاهية ترفرف في سهائها..

على رسلك يا بن آدم لثلا تنفجر عنجهيتك!.. أنا قلت إنك تقدمت علميًا، ولم أقل إنك نشرت الخير أو السعادة، لقد تغلغلت في أغوار الأرض، وغصت في أعهاق البحار، وطرقت أبواب السهاء بحثًا عن الشروات ظنًا منك بأنها

ستمنحك السعادة.. لكنك غالبًا لم تزرع سوى الشر ولم تجن سوى الشقاء!..

_إنك تقول هذا الكلام لشدة غيظك مني لأنك لم تستطع أن تمنعني من الوصول إلى هذا الرقي الذي حققته بعقلي الراجح وفكري الثاقب..

_عقلك الراجح!.. أم جنونك الجامح!.. أيها يا ترى؟!.. أنـت يا بن آدم جئت لتعمر الأرض، ولكنك رحت تعمر بيد وتخرب باليد الأخرى، دخلت إلى صميم المادة، ففجرت الذرة وتلاعبت بالإلكترون والنيترون، فكانت نتائجها تقدمًا من جهة وحروبًا ذرية وإلكترونية لا تبقى ولا تذر من جهة أخرى، بل في كل يوم رحنا نسمع عن سلاح جديد سري لا نعرف كنهه ولا نعرف مدى تدميره، لمن أُعِدّ هذا السلاح؟ لمحاربتي أنا وقبيلي؟ ! . . أم لتدمِّر به نفسك بنفسك؟ ! . . لقد أفسدت كل شيء، أفسدت البيثة، أفسدت الهواء الذي تتنفسه بالملوثات، وبالغبار الذري والإشعاعات، أفسدتَ الطعام الـذي تأكلـه فهو مروي بدمـاء إخوانـك الضعفاء، قطعت الأشجار.. حرقت الغابات.. سرقت اللقمة من فم



لجياع لتأكل بعضها ولتصنع بالبعض الآخر وقودًا حيويًا يُسيِّر آلياتك.. آه!.. مرّضتَ الأرض من تصرفاتك فارتفعت درجة حرارتها، وبدأت ثلوج القطبين بالبكاء، لا أدري أهي تبكي موتها أم موت الملايين من بني البشر الذين يقضون جراء ظلم بعضكم لبعض، الخير كثير على أرضكم ويكفيكم جميعًا لتعيشوا سعداء فلهاذا يسرق بعضُكم لقمةَ الآخر؟.. فيتخم السارق ويموت الآخر؟!.. ما هذا؟.. أتستطيع أن تقول لي أين هو العقل؟.. وأين النظر الثاقب؟!..

صمت الكائن البشري ولم يحر جوابًا.. ثم نظر إلى إبليس نظرة مكر ودهاء محاولًا المراوغة كثعلب، والتبرير كسياسي، لكن إبليس لم يترك له مجالًا وبادره قائلًا:

- في الواقع.. لابد لي من الاعتراف بأنك قد عطلت عليً عملي، فإنني أبحث بالسراج والفتيل عن إنسان أوسوس له أو أغويه فيلا أجد إلا النادر القليل، وأجد أن هذا الكائن البشري قد سبقني بأشواط طويلة لذا أعلن وأنا بكامل الوعي والأهلية القانونية: أنني أرفع الراية البيضاء مستسلمًا.. وأندب حظي العاثر، لأنني أصبحت عاطلًا عن العمل!..

٤٢- ورقت خريفيت کا

- هيه.. هيه... انتبه... انتبه... كدت توقعني أرضًا... - آسف لم أنتبه لك..

بنَزق بالغ، ولهجة عالية النبرة وحنق شديد صاح قائلًا:

- كيف لم تنتبه؟!.. و قد رأيتني وأنا أشير لك أن تقف، ولكنكم أنتم هكذا سائقي الباصات تتجاهلون الناس ولا تنتظرون الراكب حتى يصعد أو ينزل بشكل جيد.
 - حقك على راسي يا عم، أنا بالفعل لم أنتبه لك..
 - ما هذا الكلام؟.. أنا سأعاقبك.. يجب أن تعاقب !..

عندما سمع السائق كلمة العقوبة والعقاب نظر في المرآة ليتبين شخص هذا الراكب الذي يهدد ويتوعد، رأى رجلًا مسنًا يجبو باتجاه الثهانين من العمر، وقد أخذ الدهر من شعر رأسه الكثير ولم يبق منه إلا القليل، أنيق المظهر يرتدي بزة فخمة، وربطة عنق توجي بأنها من النوع الغالي، ونظارات ذهبية الإطار سميكة العدسات، وخامًا ذهبيًا عريضًا يبدو ثقيل الوزن جميل الشكل يزين بنصر يده اليسرى.



وقع نوع من الاحترام في روع السائق، فراح يكرر أسفه، وقد رسم على وجهه ابتسامة عريضة:

- أكرر أسفي واعتذاري .. وتأكديا عم أنني بطبعي أحترم كل الناس وخاصة المسنين منهم ..

نظر الراكب للسائق نظرة حملت الكثير من المعاني، ثم جلس على كرسيه، ومن تحت النظارات الذهبية سرحت نظراته إلى البعيد نابشة في أغوار أيامه الخوالى:

أنا عندما كنت أقف تجاه طابور الجنود في المعسكر، كانوا يرتعدون خوفًا وهلعًا، كانوا يقفون من خوفهم كالخشب المسندة، لا حركة ولا همسة، بل هم مغروسون في الأرض كالأوتاد، يحترمونني لهيبتي وسطوي، فأنا أبو ليث. بينها هذا السائق الغبي لا يعرف من هو أبو ليث، يقول إنه يحترمني لسني فقط!.. والأنكى من ذلك أنه يخاطبني بكلمة يا عم!.. يا عم!.. يا عم!.. يا عم!.. يا عم!.. يا السخرية القدر، رؤوس كبيرة وشخصيات ذات قيمة ومراكز مرموقة كانت تنثني باحترام وتحني رؤوسها، قيمة ومراكز مرموقة كانت تنثني باحترام وتحني رؤوسها، تخاطبني بكلمة: سيدي.. سيدي!.. يجب أن يعاقب هذا السائق بالطبع.. يجب أن يعاقب ليعرف من هو أبو ليث،

فلأتصل بإدارة المرور، أين جهازي الجوال؟.. ها هو.. آه!.. ولكنني لا أعرف كيف أستخرج الأرقام المخزنة ضمنه، فإننى أعرف الردعلى المكالمات الواردة فقط، لا بأس سأتصل على الهاتف الثابت فيها بعد .. آه كم تغيرت أحوالي، كنت في السابق أدرب قوات الصاعقة، أدربهم على القتال القريب وعلى القفز من السيارات وهي تسير مسرعة، أما اليوم فالباص تحرك تحركًا بسيطًا فكدت أنطرح أرضًا، أين هو أبو ليث؟.. لقد كنت قوي الجسم، جريء القلب لا أهاب الموت بل كان البعض يصفونني بأن لي قلبًا أصلد من الحجارة، هل أصبحت الآن ورقة خريفية تعصف بها الريح كيف تشاء، أين القوة؟ . . أين العزم؟ . . أين الشباب؟ . . آو ما أجمل أيام الشباب !.. أيام القوة والحيوية، لقد كنت أقفز بالمظلة من ارتفاع شاهق، كنت أحوم في الجو كالنسر أرقب الأرض من عل، آه ما أجمل ذاك المنظر، كل شيء كان يبدو لي صغيرًا، فأنا أبـ و ليث قاهر المظـ لات، والجميع كانوا يشـهدون لي بذلك، مكاني هناك أجل مكاني هناك في العلياء أناطح الجوزاء، لا هنا على كرسي في باص مهترىء يناطحني سائقه، أنا.. أنا أبا ليث أتناطح في آخر أيامي مع سائق!... هزلت!!!..

هدير الباص كان مزعجًا، يصم الآذان، وأبو ليث لا يسمع منه شيئًا، بل كان غائصًا في بحر أفكاره وهو يسبح عكس التيار، الباص توقف العديد من المرات، صعد أناس ونزل آخرون، وأبو ليث شارد النظرات، ينظر من النافذة باتجاه اللاشيء والخواطر تجوب أرجاء نفسه:

- أي سائق هذا!.. لقد كان عندي العديد من السائقين أمثاله، كانوا من وجلهم لا يستطيعون النظر في وجهي، ويقفون كالأصنام الحجرية عندما أتجه باتجاه أي سيارة، من تلك السيارات التي كانت لدي، سيارات مختلفة النوع والطراز، كانت كل واحدة منها مخصصة لمهمة: إحداها للصيد والقنص، وأخرى للمناورات العسكرية وكذا سيارة للبيت وللأولاد.. آه الأولاد!.. أين هم الأولاد الآن.. إنهم يعيشون حياتهم كل واحد منهم في بلد من بلدان أوربا وأمريكا، درسوا هناك ويعيشون هناك.. وأنا أعد الأيام بل السنوات بانتظار زيارتهم.. آو كم أنا بشوق لرؤيتهم، قلبي لم يعد يحتمل بعدهم، لقد أصبح لي قلب رقيق مرهف الإحساس، أين ذهب ذلك القلب القاسي؟.. هل انحنى للزمن معترفًا له بسلطانه وجبروته؟.. لم أكن - CE (N) 23.

أتخيل أن تتوفى والدتهم وهم بعيدون ولا يستطع أي واحد منهم القدوم للمشاركة في الدفن، فمشاغل حياتهم أخذتهم منا، أم لعل الحضارة الغربية زرعت في قلوبهم قساوة المادة فجعلتهم يلهثون وراءها وينسون كل شيء؟.. لكن للأمانة لقد دعوني العديد من المرات كي أذهب وأعيش معهم ولكنني مثل السمك لا أستطيع البعد عن بيتي ووطني، هل أخطأت يوم أرسلتهم للدراسة في الخارج؟.. ألم أتصور أنني سأخسرهم؟.. لكن لماذا لم يعودوا؟.. الطيور المهاجرة تؤوب إلى أعشاشها مهم طال سفرها، والله الوطن حلو وغالٍ.. الأولاد بعيدون ولا أعرف متى يرجعون وأم ليث ذهبت بلا عودة، وتركت لي خادمة تقوم على شؤوني، وكذلك السيارات فأنا لم أعد أستطيع قيادتها فالنظر أصبح ضعيفًا، وحتى تلك الرتب العسكرية التي كانت تزين أكتافي، وكنت مزهوًا بها أشد الزهو، لم أعد أستطيع ارتداءها الآن وحتى هذا السائق الذي قلت له بأني سأعاقبه لا أدري الآن كيف سأعاقبه، هل آمر بحلاقة شعره على الصفر؟.. أم.. يا للأسف لم يعدلي أية سلطة ولو على بضع شعرات، كم من مرة عاقبت بحلاقة الشعر وبالسجن!.. أما اليوم فقد لا أستطيع أن أعاقب ولو . 6 × 11 2 .

خروفًا أعجف بجز صوفه، آه كم تغيرت الأحوال، ولكن هل كل من عاقبتهم سابقًا كانوا يستحقون العقاب؟..

- يا عم!.. يا عم!.. ألا تريد النُّزول، لقد وصلنا للمحطة الأخرة..

- أجل!.. أجل!..

قال في نفسه: ما زال يخاطبني بكلمة يا عم .. يا عم .. عمى الدببة إن شاء الله. ثم وجه كلامه للسائق:

- هذه المرة سأسامحك ولن أعاقبك، ولكن انتبه في المرة المقبلة!..

نزل من الباص بتؤدة، وبدأت خطوات بالابتعاد، لكن السائق ظل واقفًا يرقب ذاك الرجل الأنيق باستغراب.



الفهرسني

0	مقدمةمقدمة
γ	١- أزمــة
10	٢- الأفعـــى
	٣- الأمل الكبير (أو صندوق خ
	٤- الجــــــــــــــــــــــــــــــــــــ
	٥- الرحلة
٤٣	٦- الصُّرَّة
	٧- العصافير
	٨- المحامي٠٨
דר	٩- بنزين
٦٩	۱۰ - دردشــة
ντ	۱۱ – رجل بلا شوارب
۸۱	١٢ - ســأحقق وجودي
۸۸	۱۳ - سمكة حرة
	١٤ - شهر عسـل
	١٥ - غليظ أم؟!

إبليس	استسلم	و

111	١٦ – في المنْزِل الأول
	۱۷ – قـــــارون
	۱۸ – مدينة السلام
	۱۹ – مفارقـــة
	۲۰ - هارب من الحب
	۲۱- وا معتصماه!
	۲۲ – أريد حنيان
	٢٣- الأحلام المسروقة
	٢٤- الأم (أستأذن غوركي في است
	٢٥- البَـــــــرْد
	۲۲- الحربـــاء
1 4 9	٢٧- الزمن الضائع
	۲۸ – الصمـــت
	٢٩- الكَرَّاج (أو الحصان البشري
	۳۰ أنسا وهسو
	٣١- حمار أبي نــواس
	٣٢- دموع قمر
	٣٣- ريــاضي
	B-11722

: ٣- شـجرة التيــن
٣٥- على الرصيف (أو ساعة شيطان)
٣٦- في الظـــل
٣٧- في عمر الزهور
٣٨- مجبرًا ينحني النخيـل
٣٩– مستر (جو)
۶۰ مکتب
١٦- و استسلم إبليس
٤٢ - ورقة خريفية
الفهرسا

و.. استسلم إبليس

WHEE

